هجرة إلى موت

وإذا الثورة سُئلت بإي ذنبٍ سجنت

رواية

علي عمار

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : هجرة إلى موت
المؤلف : على عمار
غلاف : محمد عطية
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٨٨٩٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 3 - 592 - 776 - 977 - 978

تنويه

محتوى الرواية يتحمل مسئوليته المؤلف وحده

وقد أقر بذلك

الناشر

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء إلى ..

روح أبـي الخالـدة في ذاكرتـي.. أبـي الـذي ألهمـني الجدية والسـعي في الحياة

إلى ..

أمي التي مازالتُ في حضنها طفلا

إلى ..

نفسي التي تتقبلني وإن أنتقصني كثيرون

إلى روح الشهداء..

المقدمة

ما كان ذنبهم إلا أنهم أرادوا حياةً أفضل « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها».

ودّوا لو أنهم يذوبون فى ميآه هذا النيل الحالم، فيصب بهم على شطآن عباب البحر المالح؛ فينبعثون هناك من جديد، أو يصيرون أشباحًا وينفذون من أقطار هذا الوطن الصدئة، أو يتمطون الرياح المزمجرة بصوت الشتاء الجاف..

اختاروا الغربة، بل ناشدوها أو تمنوها، وركضوا وراءها بآمالٍ جامحة ترفل فى عباءات المستقبل المنشود، ولم يثنهم عنها تلك المخاوف وأشباح القلق التى طاردوها أملاً وطمعًا فيما ناشدوه.

عبقوا اليأس من أزهار الوطن، وتجرعوا العلقم من شهده، رأوا أنفسهم بضاعة رخيصة بخسها وطنهم بماله الفاحش المنهوب، جرحوا فلم يضمد جرحهم، فأفقروا فلم يغنِ فقرهم، اضهدوا فلم يعطهم حريتهم..

ويظل صوت العدل عاجزًا عن الأذعان بحقيقة مؤلمة!!

وحسبك أن ترى عقلك وضميرك جامدين عن دورهما حيال تلك الحقيقة. إنها الجريمة التى تصرخ خرافات العدالة بأدلتها

الصارمة؛ فيكون الضحايا هم الجناة، والجرم هو العقاب، وصاحب الحق هو المحقوق، والسائل هو المسؤل!!

فيا ترى من المسؤل؟

أهو الوطن أم هؤلاء المهاجرون؟

عزفتُ الحاني

بأشجانى

أغنيةً

كلماتها أساى

ولحنها فقرى

فتلك أغنيتى وإن لم تسمعى

وهلا سمعتِ شيئًا عن رحلة العمرِ؟

هل أتتكِ أخباري

يوم حادثتى

وأنتِ ثملةُ فى نزوةِ القصرِ؟

أنا ذلك الغارق الذى

توارت أحلامه فى شهقة البحرِ

الكاتب

تمهيد

هناك فى عُرض البحر على بعد كيلوات من الأمتار من شاطيء الوطن مركب هش هزيل تترقب هلاكها -غرقا فى قاع البحر- مثلها مثل مراكب الهجرة غير الشرعية. هذه المركب تأبى خوض فزع الهلاك وحدها، تنتظر شبابًا وصبيان وافدين إليها وهم يحملون على عاتقهم وكواهلهم آمالهم وطموحاتهم فى حقائب قد تكون أكفانًا لرفات بعضهم..

هذه المركب تنتظر لتحمل معها هؤلاء الشباب والصبيان الذين هم مستقبل هذا الوطن الموجوع؛ لتواريه فى جوف الحيتان، أو ترمى به على شطآن الغربة؛ لتكون النهاية لطمة على وجه وطنٍ ثمل، أو مسحور عن الوعى الحضاري.

لأنهم شعب مكبوت؛ تحولت الحرية إلى فوضى،

فكانت العبودية!!

الكاتب

«حد قال لك انهم حاجزين فى خمس نجوم والأ فى الدرجة الأولى فى تيتانيك، كلهم كدا شبه المركب اللى هايسفروا عليها، أملهم ضعيف فى الحياة»

التدبير الخفى (١)

تطل هالة سوداء هناك من بعيد، تقترب شيئًا فشيئا تجآه الترسانة؛ لقد أجرى مدير الترسانة هاتفًا لأحدهم ليبتا معًا فى أمرٍ خطير،

بدت الهالة السوداء عندما وقفت إطاراتها أمام بوابة الترسانة على شكل عربة (**BMW**) موديل السنة أو ملحق ليست أبعد من هذا، تبدى المشهد كنايةً عن سلطة وثراء اجتمعا لصاحب السيارة.

يُفتح الباب الأمامى وتنزل بنية بشرية أبلغ ما توصف أنها مصارع ثيران!

يرتدى بدلة سوداء وقميصًا أسود، وتغطى ملامحه تلك النظارة السوداء. يبدو عليه أنه لا يعرف أن البشر يبسمون ويضحكون كما يأكلون وينامون. عابس، جاحظ بملامحه، وهذا ما يسمونهم: (بودى جارد)، يخطو للخلف قليلاً، يقبض على الباب الخلفى للعربة يفتحه، وكأنه يرحب بنزول أحدهم بعدما جال بعينيه من تحت النظارة السوداء أركان المكان، نزل من الخلف شخص ظهرت عليه علامات التيه والتكبر، يختال فى مشيته، قوامه طويل، وجه مثلث، أنفه منتفخة، بؤبؤ عينيه جاحظان، لايبتسم،

يرتدى بدلة سوداء، تتخللها خيوط رأسية، رابطة عنقه كحلية اللون، تقسمها خطوط افقية، القميص يشبه لون رابطة العنق، الحذاء أسود من الليل الحالك، قطعة ظلام تمشى على قدم.

إنه رمز للظلام، هكذا وصفه الشيخ سلامة الذى لم ينشرح صدره لرؤية المشهد.

الشيخ سلامه الرجل الخسمينى النحيف، الوافد على شواطئ البحر ينحدر لأصول صعيدية، لا أحد هنا يوقن قصته.

قادت خطوات الرجل الأسود كما يصف الشيخ سلامة ومعه مصارع الثيران إلى مكتب مدير الترسانة، وما هى إلا دقيقات معدودات وخرجوا ثلاثة متجهين إلى الشاطئ حيث المراكب ترسو. كانوا اثنين فصاروا ثلاثة، انضم لهم ثالثهم، مدير الترسانة، لكن ثالثهم أجمل رؤية، وأبسم وجهًا من أولهم وثانيهم، رجل بسيط متواضع، طالما يجالسه الشيخ سلامه ويحادثه.

مدير الترسانة يتبادل الحديث مع الرجل الأسود ومصارع الثيران متصلب لا يهمس لاينبس.

مدير الترسانة باستياء نبا عما كان بينهما من حديث مضطرب:

– يا رشدى بيه ما ينفعش خالص!!

رشدى بيه بلا مبلاة:

– هاينفع، اعمل اللى عليك وجهز المركب.

مدير الترسانة:

– إزاي؟! هتبقى مجازفة بالمركب وبأرواح ناس؟!

– إنت مش هتبقى أحرص على المركب من صاحبها !

فعقب مدير الترسانة متسائلًا بدهشة مضطربة:

– طب والناس اللى هتسافر بها؟!

ينفعل الرجل، تُشد أعصاب وجهه، ويبدو كتيس متحفز للهجوم، منتصب القرون ليقرع خصمه، ينفخ من فمه سحابة دخانية ويرد بحدة على مدير الترسانة قائلا:

– حد قال لك إنهم حاجزين فى خمس نجوم، ولاّ فى الدرجة الأولى فى تيتانيك، كلهم كدا شبه المركب اللى هايسفروا عليها، أملهم ضعيف فى الحياة، خلّص فى دورك؛ أنا مش فاضى كل شوية أحكى معاك فى كلام فارغ، إنهي، المركب هتسافر يعنى هتسافر.

ألقى بلفافته الدخانية وأعطى لمدير الترسانة ظهره ورحل هو و مصارع الثيران إلى العربة. همَّ مصارع الثيران بفتح الباب لما اقتربا من العربة. ركبا العربة ودار محركها وزحفت إطاراتها على وجه الرصيف، يتلاشى صوتها وهيكلها يبتعد، ومازال مدير الترسانة يحدّق بصمت فى هيئة المركب؛ أصابه شيء من الصدمة!

عاد الأخير إلى مكتبه، ألقى بنفسه على الكرسى وكأنه يحمل جبلاً على عاتقه. دخل عليه الشيخ سلامة بعدما رآه مغمومًا بعد زيارة هؤلاء المخيفين –حسبما أخالهم – لم يكن يطمئن الشيخ سلامة لزيارتهم؛ فى نفسه هواجس مخيفة من قدومهم.

الشيخ سلامة :

– مالك يا أستاذ سالم؟

يرد وأثار الوجوم قد ترسبت على وجه :

– أبدا مافيش .. يا عم سلامة

– الناس اللى كانت عندك زعلوك فى حاجة، شكلك مدايق

– أنت حسابك كام يا عم سلامة عشان أنا نازل القاهرة؟

– حساب!.. يبدى إنداهشه من كلام الأستاذ (سالم) فيرد عليه الأخير يؤكد على كلامه، أه ياعم سلامة :

– حسابك كام؟

– طب لما تنزل وتيجى بالسلامة

– لا، أنا هنزل ومش راجع تانى !

– ليه يا أستاذ سالم؟

ينظر من النافذة التى تطل على الشاطئ الذى ترسو عليه المراكب ويقول بنبرة عجز ممقوت :

– همشى وسايبها لهم.. هما المسئولين، ! !

عندها أدرك الشيخ سلامة أن هواجسه وراءها أمر جلل.

ذكرى (١)

ينفرط عقد المسبحة وتشرد حبيباتها على سجادة الصلاة، المطبوع عليها صورة القدس. بدأ يلملم حبات العقد المنفرط ألتى تعكس ضياء الشمس فى وجهه، هذه الحبيبات المصنوعة من الزجاج البراق أهديت للشيخ هلال من أحدهم بعد ما ابتاعها له من أمام مسجد الحسين

يلملم حبات المنفرط بأطراف أنامله اليمنى ويضعها فى باطن كفه اليسرى المقعرة كالصحن.

صلاة الضحى سنة اعتادها الشيخ هلال منذ صغره، يحافظ عليها كل يوم، يصلى الفجر فى جماعة المسجد ثم يعود إلى بيته فى غرفة تطل على مشرِق الشمس، يدخل بعدما يعود من المسجد، يفتح النافذة ليسمح لخيوط الشروق أن تنسج بردة الصباح على وجهه وهويتمتم بأذكار الصباح، وما أن نسج الصبح بردة الضحى على جسد الدنيا حتى قام الشيخ هلال فركع ركعتيه ثم خرج يتمشى نحو مطعم (أبو محمود).

الشيخ هلال بلغ الستين من عمره، متوسط القامه، مربع الوجه، أنفه حادة، تزين ملامحه اللحية البيضاء، عريض المنكبين، الأبتسامة الحزينة تكشف عن ثغره البراق كحبات

الماس، يغطى شعرَ المشيب بقلنسوة بيضاء ملفوفة على رأسه كهيئة فرسان العرب، يرتدى جلباباً أبيض قصيرا. الشيخ هالة بيضاء تمشى على قدمين.

على بعد خمسين مترا من منزله أول العطفة (المطعم).

– صباح الخير يا أبو محمود.

يرد أبو محمود:

– صباح الخير يا شيخ هلال، وهو يقرّص عجين الفلافل ويلقى به فى الطاسة فُيسمع له طشطشة تتلاشى مع احمرار القرص:

– نص سوا يا كُبّارى، لما نكونوا فى سنكم هيخلطوا لنا المية فى الخلاط ثم كشف عن طقم أسنانه المتهالك معظمه، المتسوس كله. أكلتم إنتم الخير كله قبلنا.

يقول هذا بابتسام مداعبًا الشيخ هلال، لأنه يعلم أن أسنان الشيخ هلال ضعفت، وهو يوصيه أن يقلى له (الطعمية) نصف سوا .

الشيخ هلال سائلًا:

– فين ابنك محمود، مش هنشفوه ليه؟

– والله ياعم هلال راح مع أمه عشية بيت جده، عشان يشوفوا خاله رجع من يومين من إيطاليا.

الشيخ هلال :

– حمدلله على سلامته، وهو عامل إيه فى سفرياته؟

أبو محمود يداعب أقراص الفلافل بالمصفاة تقليبًا:

ماحدش قده متظّبطة معاه عالأخر، هو أبوه اتجوز منين يعنى؟ من فلوس مَايلان،

تندى عن صف لؤلؤ الشيخ هلال إبتسامة هادئة كهدوء الصبح، قائلا:

– قصدك مِيلان،

أبو محمود:

– المهم انها فيها فلوس.

لمحَ أبو محمود كف الشيخ هلال خالية من مسبحته، تعتاد رؤيته كل صباح ممعماً، مسبحًا، صورته كالبدر وسط الدجى!! لماذا نقص فى المظهر اليوم المسبحة؟!

سأله:

– مش هنشوفوا سبحتك ليه يا عم (هلال) نسيتها فين؟

رد عليه الشيخ هلال وهو يسلك كفه الأيمن فى فتحة جلبابه الأبيض باسطًا يده إليه وفى باطن كفه حبات العقد المنفرط قائلا:

– هى الذكريات ممكن ننسوها يا أبو محمود؟

يحدج (أبو محمود) فى كف الشيخ هلال وتتخلل إشارات عينيه بين الحبيبات المنفرطة، يندهش من المشهد الجديد الذى بدت عليها حبات المسبحة. أبو محمود تعود على رؤية المسبحة

معلقة ومتهدلة بين أنامل الشيخ، تدور الحبات فى انسيابية, بحركة دائرية بين السبابة والأبهام مع تناسق تسبيحى – وكأنها شلال مائي– لكن الصورة الجديدة تبدو حبات المسبحة كحبات فشار فى صحنٍ مُقعر، رُغم أنها تلمع وتبرق فى كفه وتعكس اشعة الشمس إبراقا وإشراقا.

– ما يهمكش يا عم هلال لم نروحوو مصر عشان نجيبوو بهارات الطعمية والفول والذى منه هنجبوولك سبحة غيرها إن شاء الله

إبتسم الشيخ هلال وهز رأسه قائلا:

مش ممكن نستبدلوها بسبحة غيرها، هانلضموها ثم تنهد:

دى بتحمل جميل الذكريات يا ابو محمود إنها جزء من حياتي.!!

هات الفطار يا رجل يا طيب هات

هكذا كانت مسبحة الشيخ هلال، حبيباتها درر من ذكريات نفيسة لا تنسى.

* * *

بعد يومين من انفراط العقد

صباح الخير يا أبو (محمود) إدينى باتنين جِنى طعمية وحبة فول. كان هذا صوت أحد الزبائن يبتاع إفطاره.

الزيت فى المقلاة – التى يسوى فيها(أبو محمود) عجين الفول ليصير فلافل– يشتكى حرارة الشمس والنارَ الموقدة تحته من الشعلة، الضحى بلغ ذروته فى بساط السماء:

– محمود، جدك هلال ما شوفتوش؟

– لأ، لسه ماجاش !

– الرجل الكُبارى مش متعود يتأخر كدا!! ما اصتبحناش بطلعته المنورة

– تلاقيه نايم يابا.

– خد بالهنا، ناول الطالب مطلبه، والله يابنى احنا صلينا الفجر وهو خرج معايا وكان وشه غريب، ما تروح تبص على يا حودة شوفه كدا أتأخر ليه مش عادته يابنى يتأخر!!

– ماشى ياباي.

يهرول محمود قبالة منزل الحاج هلال طاعةً لأمر أبيه واطمئناناً على الجد. طرقات قارعة، ونداءات صاخبة لجده الشيخ هلال، لكن باءت بلا جدوى؛ لم يرد أحد!

الباب به فرجة بسيطة لكن الفتى يأبى أن يقتحم حرمة بيت الجد دون إذن، يستدير للعودة بعدما يئس من الجواب وفى خاطره: أين ذهب الشيخ؟

عاد لأبيه وأنبآه بالأمر: ناديت يابای وخبطت بس محدش رد.

يعقد أبو محمود حاجبيه ويردد:

– محدش رد.

ثم اردف: تلاقيه ماسمعكش وانت بتنادي.

– لأ، ناديت كتير وخبطت !

– طب احنا هنروحوا نشوفوه شوية وراجع لك، هادى الشعلة على الطاسة.

يتمشى (أبو محمود) ناحية منزل الشيخ هلال، وعلامات الأستفهام تسبق خطواته.

اقترب من المنزل وتوقف أمام الباب يقرعه بقبضته وهو ينادي:

– حاج هلال، حاج يا حاج، يا بركة.

لا جدوى. لم يرد.

التوجس زاده مراودة فى جوانحه، صمت لبرهة ثم زج بمصرع الباب ودلف إلى الداخل، لم تكن خطوته الثانية لحقت الأولى حتى رمق الشيخ هلال منكفئا على سجادة الصلاة، من أول وهلة برهن توجسه أن الأمر جلل، ضربت به صواعق من التوتر والخوف وخفق قلبه قلقا، عاش فى ثوان أشد أوقاته فزعا وهلعا.

– ياحاج ياحاج!

وهو يهرع إليه عدّل جلسته، استند الشيخ على صدره وهو يناديه بصوت مفزوع:

– حاج يا حاج!

لثم على خد الشيخ بأطراف أصابعه:

– يا حاج يا حاج!

لم يجبه غير أنفاسه المقطوعة وحرارة جسده التى هدأت ومالت إلى البرودة والنور الأبيض الذى كسا ملامح الشيخ، أيقن أبو محمود أن الشيخ لن يعود إليه ليشترى منه الأفطار ثانيةً، وأنه لن يصطبح بهذه السحنة بعد اليوم، ها هو آخر صباح ترمقه فيه عيناه.

– «إنا لله وإنا إليه راجعون»؟!

قالها بصوت محزون مكللة حروف كلماته بدموع فراق قبل أن يرخى جثمان الشيخ ويغطيه بملاءة ويخرج، نصبت طقوس المأتم، وفى عرصة السرادق تُليت الأيات وأخذت التعزيات، لا حديث غير الدموع والبكاء فى الحال مات الحاج هلال.

أشباه أحياء (الفقر١)

«الصلاة خيرٌ من النوم الصلاة خيرٌ من النوم الصلاة خير من النوم الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله»

مع هذا النداء الفجرى تستيقظ أم نبيل من نومتها وتنبعث من مرقدها.

«أصبحنا وأصبح الملك لله « مع تثاؤبه تكفكفها بيدها المتخشبة. أم نبيل السيدة التى تصارع الأمراض فى سنها الخمسين، سيدة قصيرة القامة، ممتلئة الشحم نسبياً رغم أن الأمراض فى آخر عامين تأكل من جسدها كما تأكل النار الحطب، وجهها كسآه الشحوب، عيناها حزينتان ذابلتان، وقدمآه مشققتان من كعبيهما، بصرها ضعيف أوشك على العمى، تسكن هى وابنها نبيل فى هاتين الحجرتين الهشتين فى المنطقة العشوائية بمنشية ناصر.

أم نبيل لا تقوم فى هذه الساعة لتصلى الصبح فحسب، إنما لتعلن جهاد يومها وتمارس نشاطها الكفاحى المعهود طلباً للرزق. وقبل أن ينسج الشروق خيوطه البيضاء على صفحة الليل الباهت، تكون ملائكة الرزق قد بدأت تعد وتكتب خطوات المكافحة أم نبيل وهى تنقل خطواتها نحو ناصية الشارع التى تبتعد أمتار عن بيتها المرهون، حيث ركن بجوار مطعم (كلْ واحمدْ) ركن يرسم

ملامح الست المصرية المكافحة التى تقاوم مغالب الحياة العصيبة بصبرها وعزمها الميئوس؛ لتكفل نفسها وابنها الشاب العاطل.

تسير أمُ نبيل بخطوات رديئة بطيئة أبطأها المرض- وكأنها سلحفاة تتشمس على رمل الشاطيء- قاصدة ذلك الركن الذى ينتظر لقاءها كل صباح، فى يدها اليسرى قفص مصنوع من جريد النخيل يتزين بلون زيرابي، يحمل فى صنعته بصمات أنامل مبدعة شكّلته على تلك الصورة المبهرة، وفى يدها اليمنى تمسك بعصاها التى تتوكأ عليها ولا تهش بها على غنمها؛ لأنها لا تملك مادياً ولاصحياً أن يكون لها غنم فتهشه، هى تكتفى بالربح من بيع حُزيّمات عيدان الجرجير والفجل وشيء من فسيل البصل، بعد أن رحمتها الأمراض من مشقة ومهانة الخدمة فى بيوت (ولاد الأكابر والبهوات) وإن كانت الأمراض رحمتها من هذا فقد أسندت لها مهامًا أخرى لتكتسب منها قوت يومها فضلاً عن أنها أجبرتها على مصاحبة العصا بعد أن أعشت عينيها، هذه الأمراض المتنوعة بين :الضغط، والسكر، وفيرس الكبد..تكفل التأمين الصحى بإعطاء أم نبيل شهرياً حبيبات من أقراص المضادات الحيوية، وأنبولات الحقن، والسوائل الدوائية، وكلها مسكنات تحت مسمى «الدواء «. التأمينات الصحية القنوعة بقوله تعالى: «وإذا مرضت فهو يشفين» ترى هذا النص القرأنى منحوتًا على كل الجدران الهشة للمشافى العامة فى مصر دون الخاصة «راحة المريض خدمتنا» .

تقعد أم نبيل على ظهر جلمود جيرى أملس بعدما ألقت تحية الصباح على صاحب مطعم (كلْ واحمدْ) الرجل الأربعينى صاحب الشارب الكثيف المتهدل على شفتين يابستين، والعين القارحة.

يُخرج لها عهدتها، بساط منسوج من خيوط الخيش(جوّال)، دقائق ويأتى فتى يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا حاملاً بضاعتها المتكل عليها رزقها (الجرجير والفجل والبصل).

كعادته نبيل فى أيام بطالته التى أكثر من أيام شغله يقوم مع غروب الضحى متكاسلاً مترنحًا كالسكير الثمل، أثقل رأسه النوم بعد طول سهر مع الشلة الليلية صاحبة المزاج المثمر على نبيل بغرامات مالية ضاقت بها أمه ضجرا ومقتا.

– صباح الخير ياما.

– صباح الخير ياابنى.

وتمد يدها فى الصرّة التى تضع فيها النقود وريقات وقطع فضة من الجنيهات التى ربحتها، ومما رزقها الله بها فى الصباح، تخرج بعضًا منها وتناولها لابنها.

– خد ياابنى ربنا يفتحها ف وشك وتلاقى شغل.

إعانة مادية ودعوة أمية يومية، عندما يمر ابنها عليها كل صباح منذ شهور: «ربنا يفتحها ف وشك وتلقى شغل»، يتمنى الأبن أن لو يستجاب لدعوة أمه مرة وينصلح شأنه وحاله، قد مَلَّ الدعاء، لطالما دعتْ له بهذه الدعوة ولكن أبواب السماء مغلقة، هكذا يظن فى نفسه.

هذا هو نبيل ابن (أم نبيل) يعد من العمر ثمانية وعشرين سنة– لا عاما– وزنه أقل بكثير من سنه، قوامه يميل للقصر، نحيف، لون بشرته أدمية، وجه مستدير أملس، البشلة فى

خـده الأيسـر علامـة الجـودة للمناطـق العشـوائية، عينـاه سـوداوتان، حاجبـآه ضعيفـان، شـعره أكـرت، مدخـن رغـم أنـه لايملـك ثمـن علبـة السـجائر الصيـني.

– أحلى صباح ياأسطى.

– إيه يانبيل، لسه ملقتش شغل يا زميلى؟

– ادينى قاعد على القهوة مستنى الفرج وأخواته!!

– باقول لك ياصاحبي، ما تشوف المعلم فريد واطلع معاه فى المحارة.

– يـا زميلـى، أنـت عـارف أنـا مليـش فـى المعمـار؛ مـا بقـدرش عليـه والحساسـية اللـى عنـدي، والمعمـار يـوم شـغل وعشـرة لأ!!

– يابرنـس أطلـع علـى مـا تفـرج بمـكان تفتـح فيـه عيـادة ولا تلاقـى الشركة اللى تشتغل فيها مدير يا مدير.

– انت بتهزر؟!

ضاحكًا بفتور وسخرية ,وبفلسفة موجوع منذ أن خلق رد:

– لـو ماهزرنـاش هنمـوت يـا صاحبـى فـى الزمـن الأغـبر دا، البلـد دى دفنانـا بالحيَـا وياريـت زرعـت علـى تربتنـا صبـار عشـان تفتكرنـا ولا حـد يرشـنا بشـوية ميـة!

فـى المسـاء بحـث نبيـل عـن المعلـم فريـد؛ ليسـأله عـن عمـل معـه فـى المعمـار.

فـى حـارة لا تسـمح لاثنـين أن يمـرا معـا كان يتسـلم مـن أحدهـم «البكتـة» ويغمـزه بالعـوض المـادى، شـاب فـى الثلاثينـات أسمـر

البشرة شعره خفيف عنتيل المنطقة، كما تنعته سمية ملكة جمال سوق الخضار.

– ازيك يا معلِّم؟

– ازيك يا نبيل، حلو أنى قابلتك تيجى الفرح بتاع الواد (دبشة) الدخان والبيرة والتموين هيبقوا بالكوريك، شايف أنا جايب له إيه (وأشار للبكتة).

نبيل: باقول لك ياسطى ...

– قول يا نبيل

– ماماعكش يوميتين شغل؟

– عايز تطلع الشعل يا نبيل؟

–آه ياسطى الحالة جبس عالأخر، ! !

– بس أنت صحتك على قدك؛ بتتعب من شيل المونة ومهنتنا عايز لا مؤخذة بغال عشان يقدروا يشتغلوا فيها وأنت يا نبيل زى البرص الجعان ماتزعلش مني.

– أعمل إيه ياسطى أقعد ونصرف أنا وامى العيانة بالكام بريزة اللى بتبيع بيهم الجرجير والبصل! !

– خلاص يا نبيل اطلع معايا الصبح

– ماشى ياسطى.

– نبيل، بكرة ماتتأخرش هنمشى بدرى ! ملوحًا إليه بسبابته يحذره من التأخير.

– طب هات خمسين جنيه أسيبها لأمى.

– هـى مهيتـك كام يعنـى عشـان تاخـد خمسـين جنيـه دى الوقـت قبـل مـا تطلـع؟! مامعيـش غـير عشـرين جنيـه.

ودس يـده فـى محفظتـه واغتصـب عـن رغبتـه منهـا كل مـا تملـك ورقـة العشـرين جنيهـا وأعطـاه إياهـا.

نبيل يتلاعب بعينه:

– طـب مـا تجيب لفة دخان ياسطى، الطاسـة عايمـة وعايزة أتقلها

لمـا تيجـى الفـرح بالليـل هاغرقـك يـلا، نتقابـل فـى مهرجـان «دبشـة»

«لـو ماهزرنـاش هنمـوت يـا صاحبـى فى الزمـن الأغـبر دا؛
البلـد دى دفنانـا بالحيَـا وياريـت زرعـت عـلى تربتنـا صبـار
عشـان تفتكرنـا، ولا حـد يرشـنا بشـوية ميـة!»

التدبير الخفى

فى اليوم الثالث من زيارة هذا الرجل الأسود للأستاذ (سالم) مدير الترسانة. ها هو المشهد يتكرر مرة أخرى يلمح الشيخ سلامة الهالة السوداء تقترب من بعيد، تيقن الشيخ سلامة أنه(الباشا).

نزل أحدهم كالعادة من الباب الأمامى للسيارة وفتح الباب الخلفى لينزل الباشا، لكن هذه المرة ثمة أمور جديدة، البنية البشرية تغيرت، هذه بنية بشرية أيضا لكنها ليست مصارع الثيران الذى أتى فى المرة السابقة، وهناك شخص آخر يصطحبه الباشا، إنهم ثلاثة هذه المرة، ولعل فضول الترقب عند الشيخ سلامة أثار عنده تساؤلات وأراد الإجابة عليها. ماذا عن مصارع الثيران، أين ذهب، هل صارع الثيران فصرعته وهلك؟

وما هذا الثالث ولماذا لم يغير الباشا بدلته السوداء بأخرى غير السوداء؟

كلها تساؤلات حدّث بها نفسه الشيخ سلامة بسخرية وأراد الإجابة عليها، وكاد فى عقله أن يستوقف الباشا ليسأله، لكنه رأى من الأفضل والأسلم أن يجيب هو عليها – خيرا له ولأهله جميعاً – كم هو شجاع هذا الرجل (الشيخ سلامة).

الثلاثة فى مكتب مدير الترسانة كلمات النقاش والحوار متناثرة بين الأستاذ (سالم) و (الباشا) والوافد الجديد.

أستاذ (سالم) يجلس على كرسى مكتبه، الوافد شخص فى العقد الرابع، يجلس على المكتب.

الوافد بهدوء مستفز ونبرة تثير وتهيج الغضب:

– يا أستاذ سالم، نسبة الخطورة لا تتجاوز٢٠٪ وأنا شايف إننا نقلل من العدد على المركب ومافيش قلق.

أستاذ سالم مانعًا جنود غضبه من الأندفاع محاولا إظهار الهدوء:

– اقتراحك يا سَيّدى مش حل، أنا باقول لحضرتك دى مجازفة بأرواح بشر، بشر مش حمولة بضاعة هى !

الباشا يخرج لفافته من فيه، متسائلا:

– إيه حلولك ياا(سالم) بيه؟

شَعُر الأستاذ (سالم) بلهجة السخرية فرد فى تأفف:

– الحلول عندكم ياباشا، مش أنتم بتحلوا أى حاجة؟

الوافد:

– طب إيه العطل اللى فى المحرك يا أستاذ (سالم)؟

يرد الأستاذ (سالم) بامتعاض:

– حضرتك ممكن تقعد مع فنى الصيانة ويعرفك.

الوافد من أجل إنهاء كلام فارغ، حسب ظنه مع أستاذ سالم:

– خلاص ماشى هنشوف الموضوع دا ومحلولة ماتقلقش.

قال جملته وهو يهم بالقيام لينهى لقاءه، خرج الأثنان من مكتب الأستاذ (سالم) واستقلا العربة وهم يتبادلان الكلام بينهما.

الوافد:

– أنا هاجى أقعد مع فنى الصيانة واقنعه أنه يعالج مشاكل المحرك لحد بس المركب ما تمشى بعيد عن حدودنا، شكله المحترم دا (يقصد سالم) هيعمل فيه مدير بجد وممكن يسبب قلق لمعاليك.

الباشا:

– هو جديد لسه متعين من شهرين وأنا هاعرف إزاى أبعده بشوشرته وضميره .. متقلقش انت اعمل اللى انت قلت عليه وسيب لى الباقي.

الوافد:

– طب سيادة النائب يعرف حاجة عن الموضوع؟

– مالوش فى الوش دا، أنا للى باخلّص فى كل حاجة

القلق احتدم فى صدر الأستاذ (سالم) بعد هذه الزيارة، وتيقن أنه لن يستطيع استخدام صلاحياته كمدير للترسانة، وأنه مجرد لاشىء؛ نبرة الباشا أوحت له بهذا. قادته خطواته إلى الشاطئ وصعد ظهر المركب محل القلق والجدال، يتجوّل على ظهر المركب وهو أسير صراع داخلى وشعور بالعجز والحيرة وحزنه واساه على المصير المتوقع لهذة المركب و ركابها فى الحالة

اليائسة، نشط ذهنه وأتاه بفكرة أعادت له توازنه العقلى، إنها فكرة أن يضخم من أسباب أعطال المحرك بحيث يجبرهم على عدم قيامها بالرحلة، يالها من فكرة رائعة يتحمس لها ويساعد عقله على تفعيلها ذهنياً ومناقشتها بصورة أدق فى عقله حتى لا يقع فى خطأ محتمل.

رأى أن الفكرة يجب أن يناقشها مع عقله جيدا فراح يجلس على مقعده لينظر فى فكرته، خيوط تتشابك وافكار تتزاحم، وصورة تتبلور وحلول تتجسد فى صلب الفكرة انتهى نقاشها مع عقله بالأتى:

أن يقوم بتوسيع ثغرات الخطر دون ترك ما يشعر أحدا أن هذا بفعل فاعل. انتظر حتى آب عمال وموظفو الترسانة إلى منازلهم وهرع إلى المركب نفذ فكرته، لم يحتج فى التنفيذ إلا إلى مفك صليبة ومطرقة , وبالفعل شرع في تنفيذها بحماس المنقذ.

«الحمدلله نفذت الفكرة من غير ما حد يعرف».

ينظرللمركب وكأنه يقول له: «لقد أنقذتك من مصير بائس، لايمكن لك أن تخوض فى المتوسط أكثر من كيلومترات وهذا ما سأبرهن عليه على عدم قيام الرحلة «. يعتقد أنه كتب للمركب عمرا جديدا وأمدا طويلا وأنه فعل الصواب!!

فى صباح اليوم الثالث من الزيارة يتجه إلى مكتبه، يسلك يده فى جيبه يخرج مفتاح المكتب يولجه فى الباب يشعر أن الباب فتح من قبل!! زج الباب، دلف إلى الداخل، تتفاجأ عيناه بأحدهم يستعمر مكانه ويتراقص جالسا بكرسيه المتحرك.

–انت مين حضرتك؟ سأل المستعمر الخارجى لمكتبه

يستدير الجالس مكانه؛ كان ظهره مقابلا له، يجيب بكل استفزاز وهو يعبث بالقلم على فمه

– الباشا يا ريس، آه قصدى يا من كنت ريس ادانى تليفون إمبارح وكلفنى بمهامك عشان يريحك شوية.

يستفزه رده فيتقدم إليه بخطوات ملوحا إليه بذراعه الأيمن:

– إنت مين؟ وجى ليه وباشا إيه؟!

يرد باستفزاز على الأستاذ (سالم):

– الباشا بيبلغك إن الحسابات مجهزة لك شيك باقى حسابك ومع السلامة.

كلمات هذا المستفز نزلت عليه كالصواعق الكهربائية، حدث ما لم يتوقع؛ خر هامدا على المقعد الذى كان يستقبل عليه ضيوفه وهذا المستفز يجلس على كرسيه المتحرك أنتزعت منه صلاحياته الأدارية بل حدث إنقلاب عليه هو الأن خارج منطقة التأثير والفعل...!

حاول المستفز التخلص من قبضة الأستاذ (سالم) وانتزع عنق قميصه من بين أنياب أصابعه وأنجاه من التمزق ولم يكن ردة فعله بعد هذا إلا كلمات حادة مضمونها، طرد الأستاذ (سالم) من المكتب بل من الإسكندرية كلها فى ذهول واندهاش لم رآه منه وهو يتهته بكلمات مع نفسه.

خـرج الأسـتاذ (سـالم) مـن مكتبـه – سـابقاً– مطـروداً كالمجنـون لا يـدرى إلى أيـن يذهـب، أم مـاذا يفعـل؟

يضرب أخماسا فى أسداس متسائلا:

– أعمل إيه؟ ولا إيه اللى عملته؟!

يتجـه حيـث لا يـدرى، تحثـه خطـاه إلى الطريـق العـام، علـى جانـب الطريـق الأيمـن ينتظـر هـدوء العربـات ليعـبر للجانـب الأخـر مـن الطريـق، يريـد أن يعـبر لكـن العربـات تتـوالى وحركـة السـيارات سـريعة، يترقـب الطريـق بعينيـه وعقلـه شـارد لا يتحكـم فـى إشـارات عينيـه.

يتهته لسانه: أنا عملت إيه، أعمل إيه؟

يلمـح الطريـق، هـدأ مـن ركـض الأطـارات علـى رصيفـه بيـد عربـة وحيـدة قادمـة مـن بعيـد، رأى أن فرصـة العبـور سـنحت فأخـذ يجـر قدميـه ليعـبر الطريـق.

– « حاسب حاسب « لاحولا ولا قوة إلا بالله «.

ينزل من سيارته مُفزعًا وأعصابه لا يتمالكها.

– والله هو اللى تردد وهو بيعدي.

قالها لرجلين هرعا إليه من قريب وقالا:

– يلا ناخده بسرعة على المستشفى يلا يلا.

المستشـفى هـذه الكلمـة زادتـه فزعًـا علـى فـزعٍ؛ هـو يـدرك معناهـا فـى مثـل هـذه الظـروف يعنـى محضـر وتحقيـق، واتهـام، وقتـل خطأ،

إن لا قدرالله حدث المتوقع، أقل ما فى الأمر تعويض إن نجا، تعويض « لا أنا مامعيش غير شوية الفلوس اللى هدفعهم للسفر يارب أسترها « كان يتحدث مع نفسه بهذا قبل أن يدخل بعربته من بوابة الطوارئ للمستشفى. رجلان صحباه إلى المستشفى ليسعفا المصاب الذى صدمه بعربته انزلآه من عربته، أتى المرضون يرتدون الثياب الأبيض الملائكي، وضعوه على الحاملة الطبية (الترول) الدم ينزف من رأسه وأنفه، أدخلوه إلى القبو المؤدى لغرفة العمليات وصاح أحدهم:

– حادثة حادثة، نادِ على الدكتور نشأت بسرعة.

الفرح

«أنا شارب سيجارة بنى بنى بنى وحاسس إنى دماغى بتكلنى كلنى كلنى».

سُدَّ الشارع من الثالثة ظهراً حتى مطلع الفجر، نصبت الأعمدة الخشبية لتشتبك بها حبال الأضاءة وكُسى الشارع بفراشة الحاج(أبو فرحة) لتوارى كسوة هذه الفراشة جدران الشارع الصدئة. فرح الواد (دبشة).

«قاعد فى الحارة باسقّط باسقّط باسقّط».

فى أول الشارع يستند على حائط يحوط به منضدة خشبية تأخذ شكل المربع ناقص ضلع، مكسوة بغطاء قماش أبيض – يبدو أن فرح «دبشة» سيكون شيك وراقى – على يمينه فوق المنضدة صَوانِ ستانلستيل مستديرة موضوع عليها أكواب وفناجين، وعلى يساره أشياء مرصوصة على هيئة الجنود المتأهبة لإطلاق النار، إنها زجاجات الشيشة، أمامه على المنضدة فراغ متسع لاستقبال الأكواب الفارغة، تحت المنضدة الشعلة يربط بينها وبين أسطوانة الغاز حبل المودة والتواصل النفطى، وعليها غلاية من الحجم

الكبير يصنع مشروبا يقال إنه الشاى، وهناك فى المقابل فى آخر الشارع المطرب الألكترونى الذى يغنى كل الأغانى ويحيى ليال الأفراح والملاح الشعبية، إنه (الدى جى) أمامه حلقة من الشباب الخرع يتراقصون بالسنج والمطاوى، ولم يعبأوا ببنطلونهم الذى يهرب من وسطهم

«والغسيل عمال ينقط ينقط ينقط، ...»

يتوسط الشارع الراعى الرسمى للمزاج المصري، أمامه طست غسيل زوجته، استعاره منها عنوة؛ ليضع فيه الماء الثالج ليحفظ زجاجات الخمر والبيرة من حرارة أنفاس البانجو والحشيش المعبئة للمكان « أنا شارب ازازة استلا وعامل دماغي منافلة..كوكا كوكا، يا عم ولع، يا سيدى ولع» تزامنت كلمات الأغنية مع صوت أحد أقارب العريس وهو يلقى بعرموسى بانجوأمام لِحية قصيرة: ياعم والله انت فى فرح.

فرد الشيح محسن في ضحر حاول موارته ببسمة مصتنعة مجاملة لصاحب الفرح:

– ياعم أنت متشكرين مالناش فى الحاجات دى.

«يا عم يروق يا سيدى روق» هؤلاء فى مثل هذا الفرح الشعبى كالوردة البيضاء وسط نبات النجيل، الكل بيعفروا وهم بيستغفروا لذنبٍ لم يقترفوه، هناك قرب (الدى جي)، نبيل ينفث فى لفافةً محشوة من فضلة خير(٣٣) يغمز لأحدهم كان يمر كمراقب الأمتحانات بنظراته المتفحصة فى وجوه الحضور: إيه مافيش حاجة زرقا ولا حمرا؟

يـرد الغمـزة بغمـزة ومعهـا يـده تلقـى بالحبايـة فـى حجـر نبيـل، نبيـل: قشـطة عليـك وعلـى اللـى حواليـك

بعدمـا عمّـر نبيـل الطاسـة بـإزازة سـتلا وخبوريـن وحبـس وراءهـم حبايـة حمـرا قـام مترنحا يسـأل الحـارات الضيقـة عن بيتهم فـى الثلث الأخـير مـن الليـل. آوى نبيـل لركـن يفـرغ حوضـا من حمـض ضاقت به مثانتـه حمـلاً، آهـات وصرخـات تثير الغريـزة، كان ذلك ضجيـج اللذة.

نبيل:

– الـواد لبانـة تلاقيـه عاكـش البطـة جـوة ..لمـا أشـوف كـدا مـين معـاه.

ومـن فرجـة فـى مصـرع الشـباك الـذى أسـود مـن العوامـل البيئيـة، تسـربت أشـارات نبيـل البصريـة إلى الداخـل وضعيـة حيوانيـة مثـيرة.

نبيل:

– يابن الكلب يا لبانة: الوزة الكبيرة لاااا انت فجرت؟

ثـم مـال علـى حجـر ورشـق الشـباك وتلاشـى ركضـا وهـو يحـاول كتـم ضحكاتـه الهسـتيرية.

عـاد نبيـل إلى بيتـه لينـام حتـى يسـتيقظ مبكـرا فـى السـاعة الخامسـة صباحـا، وقبـل أن تسـلب الشـمس ظلمـة الليـل المحتضـر، تثـاءب نبيـل بعـد أن أيقظتـه أمـه بنداءتهـا المتكـررة عليـه:

– قـووم يـا نبيـل، قـوم ربنـا يفتحهـا فـى وشـك قـوم ياابنـى النهـار شقشـق، كان هـذا صـوت أمـه يطربـه بلحـن مزعـج لنومتـه الغاطة.

نـزل نبيـل مـن علـى الكنبـة والكسـل يحـط بأعضائـه، قاومـه نبيـل برشـاقات ميـاه علـى وجـه مسـحها بمنشـفة خشـنة باليـة كانـت متهدلـة علـى بـاب الحمـام، ثـم خـرج وفـى يـده حقيبـة بلاسـتيكية تحـوى ملابـس الشـغل: قميصـا مهترئـا، وبنطالـون عتيقـا، وجزمـة بلاسـتيك، قبـل أن يصـل إلى ناصيـة الشـارع حيـث التجمـع العمـالى والعربـة التـى سـتقلهم لميـدان العمـل (القاهـرة الجديـدة) أرض البهـوات التـى لا يدخلهـا نبيـل وأمثالـه إلا للعمـل فيهـا فحسـب.

قبـل أن يصـل بأمتـار كان صـوت (المِعلـم فريـد) يشـد خطواتـه اسـتعجالاً.

يـلا يانبيـل: مـش قولتلـك قـووم بـدري، إمشـى شـوية، اتحـرك يـلا هنمشـى

عربـة ربـع نقـل صنعهـا الجواجـة لغـير مـا يفعلـه مقاولـو تلـك المنطقـة وغيرهـا مـن أربـاب طائفـة المعمـار، صنعهـا الخواجـة لشـحن الأخشـاب والكراكيـب أو المواشـى والخضـار، لكـن هـؤلاء يشـحنون بهـا عمالهـم الأدميـين الذيـن كرمهـم الألـه لكنهـم يهينـون أنفسـهم بركبوهـم إياهـا.

كان نبيـل آخـر المشـحونين فـى صنـدوق العربـة ليكتمـل عـدد المشـحونين خمسـة وعشـرين نفـرا!! ولا تسـأل كيـف ركبـوا فهـذا مـن إبداعـات المصريـين، تكتـظ جوانـب السـيارة بأعـداد الحمولـة الأدميـة ولا تـكاد إطاراتهـا تتحـرك؛ فقـد رصـوا رصـا مـن قبـل المقـاول. لا أدرى أبهـذا يوفـر أجـرة عربـة أخـرى حفاظـا علـى ثروتـه، أم أنـه يحافـظ علـى الوحـدة العماليـة؟!!

المقاول سائلًا المشحونين :

– كله ركب؟! فى حد ناقص؟

شرذمة من العمال:

– لأ يا معلم، كل تمام مافيش حد ناقص يلا وبالراحة ما تجرى بالعربية **احنا ماشين على بربع جنيه هوا**.

ركب **المقاول** فى الكبينة بجوار السائق وانطلقت السيارة مشحونة بالعمال، على الطريق الدائرى فى مدخل الجولف، كانت ثمة حادثة شلت حركة مرور الطريق؛ فتوقفت سيارة العمال التى حشر فيها نبيل. نزل المقاول وابتعد أمتارا قبل أن ينادى للسائق أن أركن جانبًا، حادثة عمال، نزلوا جميعا من السيارة وقلوبهم ترتجف من النبأ، منهم من يهرع ومنهم من يهرول؛ ليكتشفوا الحادثة، ومنهم من يدعو سرا أن لايرى أخاه فى الحادثة، ومنهم من يدعو إلا يرى أباه، ومنهم من يدعو إلا يرى صديقه، ومنهم ومنهم... اقتربوا من مكان الحادثة وملامحهم يكسوها التوتر والخوف، يلهثون كما لو أنهم أتوا من هناك من بلدتهم راجلين.

«لا حول ولا قوة إلا بالله لا حول ولا قوة إلا بالله «»ربنا يسترها»

كان بيجرى ليه؟

من امتى الحادثة؟

حد اتصل بالأسعاف؟!

وأنين وتوجع وبكاء..

كانت هذه الأصوات تتناثر على الدائرى كما تناثرت أجساد أولئك الذين انقلبت سيارتهم وهم ذاهبون للعمل مثل نبيل.

بدأ رفقاء نبيل يلملمون أمثالهم المتناثرين على الرصيف كما تلملم الذبائح فى السلخانة، مابين جريح ومصاب، ومن رحل عن الحياة، هذا يمسك ظهره ويتألم، وذاك لا يرى ملامحه من لطخ الدماء، وآخر يلتقط أنفاسه الأخيرة بعدما ارتطمت جمجته بالأسفلت، تغير لون الرصيف بعدما خُضب بدماء العمال، والأستغاثات لا تأتى بجدوى رغم هول المشهد وفظاعته.

أجساد متناثرة على أسفلت الدائرى شلت حركته من الجهة اليمنى، وكعادة الدولة تقوم بدورها وترسل سيارات الأسعاف – متأخرًا– بعد إلا ستغاثة بها، شحن المصابون والجرحى فى عربات الأسعاف. ولعل هذا الشحن ارقى مما كانوا فيه قبل الحادثة، رغم أنهم ركبوا فى الأسعاف دون إرادتهم، إلا أنها أرقى آدمية من الربع نقل. من بين سيارات الأسعاف حملت واحدة فى أحشائها صبياً لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره، يبدو على حالته أن بظهره كسور قد حملوه فى السيارة منكفئا على وجهه مسجى على الحاملة الطبية، صبى بظهره كسور

ليته مات!، هكذا هو يتنمى وأشفق المشفقين عليه؛ الموت أرحم من العجز؛ لن يملك المال ليعالج عجزه ولا يرضى أن يعيش مرارة أيامه عالة، طريح سرير أو مُقعد كرسى متحرك، وقد لا يستطيع شراء هذا الكرسى، **فالموت أفضل!**

بعد رحيل الأسعاف لملم العمال أنفسهم بعدما عادت حركة السير للطريق الدائرى ورصوا أنفسهم ثانية فى عربتهم. تحركت السيارات ودهست رفات دماء المصابين الذى رمقه العمال فى مشهد كانوا من الممكن أن يكونوا هم أبطاله وغيرهم يلملمونهم، ولعل هواجسهم تخبرهم أن الكرة عليهم. مصير محتمل صباحا ومساءً الكل يخشاه ولا مفر ولا نجاة!!.

«احنا راكبين على بربع جنيه هوا»

ضحية قضية (١)

مع رحيل الشمس متخفية وراء الأبنية العالية، أصفرَّ قرصها وهى تودع السماء ببصمات قزحية كان هذا الكلبوظ المشاغب يفرقع البالونات ويعبث بالهدايا ويثير شغبه المعهود لديه.. المفطور عليه.

أصوات أنثوية ما بين ضحك وكلام وثرثرة فى الفاضى والملآن، البلونات التى فُرقعت والهدايا التى فُتشت – رغما عن الكل– كانت من طقوسات الأحتفالية المنزلية، وتلك الأصوات أصوات صويحباتها اللائى جئن ليباركن لها ويفرحن معها بنجاحها. أتممت بهذا النجاح التعليم الجامعى بتقدير جيد، وما هى سوى أيام وتحوز شهادة الليسانس من كلية الأداب قسم التاريخ جامعة حلوان لتزين بها حائط الصالة. رجاء هذه الأنثى التى راهنت أمُّها الزمن على التزامها وحمايتها من مغريات ومغرراته الشبابية ونزوات المراهقة فأربحتها ابنتُها الرهان. استكفت من الحياة بسبعة وعشرين عاما، وهى الأن فى الثالثة والعشرين فتاة ممشوقة القد، رشيقة القوام، محمرة الوجنتين والخد، عيناها لؤلؤتان مخرزتان بلون أزرق محروستان بسهام رموش تصيب من ينظر لها بالصبابة والوجد، فرعاء بيضاء يشع بياضها نورا بحمرة فرنسية, حتى تكهنت إحدى جاراتهم. إن جمالها هذا يرجع لتزواج جدتها

لأمها بأحد جنود الحملة الفرنسية إبان حملتهم على مصر، حورية مقصورة فى خيام الأدب والألتزام.

وسط الهرج والمرج الأنثوى، وتراشق الفتيات بالضحكات التى تذيب جليد الأطلسى، كانت رجاء تحاول فك شيفرات نقش الدجاج لرسالة حملتها إليها إحدى صوحيباتها، وببراعتها اللغوية، استطاعت فهم محتوى الرسالة وأنها جواب غرامى، باح فيه صاحبه وأفصح بمشاعر نعتتها رجاء بأنفلونزا المراهقة سرعان ما يشفى منها صاحبها. وبنظرة تنوء بالأنكار لفعلة صديقتها دست لها الورقة فى شعرها بعدما طوتها بإحكام:

– قولى لابن خالك عيب انا باحترمه، واعقلى اعقلى.

تهمس بجوارها حتى لا تسمعها أم صديقتها فتوبخها بطريقتها الريفية :

– إيه يا بنت الكآبة دى، ! كدا لا (أنتيم) ولا (حبيب) خارجة عن نظام الشلة، ليه يابنتى انتِ هتترهبنى ولا إيه؟!

يجوس فى خدر الفتيات وتعلو الشفاه– المتلطخة بالحلوى – بسمة قتل عبثُه براءتها

ترسم على بلونة نجت من نازية الصبي، وترد:

– آه هاترهبن، مش أفضل فى زمنا ده!

صرخت بصوت عال كأنها فقدت عذريتها فأفزعت صديقتيها، ليأتى صوت أم رجاء من الصالة مخترقا حواجز الجدران، عابرا باب الغرفة:

– إيه يا بنات، إيه اللى حصل؟

ترد رجاء ثائرة:

– ابنك يا ماما، فزع نيللي!

الصبى قام بفرقعة البلونة تحت أذنها منتهزا سهو الفتاة ليفعل فعلته ويفر هاربا. أبى ألا ينتهى اليوم دون وضع لمساته العبثية، التى تترك أثرا بالغا فى الأحداث.

فى اليوم التالى للاحتفالية تذهب رجاء لمكتب فى وسط البلد فى مقابلة (عمل) وظيفة سكرتيرة قرأت عنها فى جريدة الوسيط، لكنها لعدم خبرتها لم تحظَ بالوظيفة، وفى أثناء انتظارها فى مكتب التوظيف تعرّفت على فتاة جاءت مثلها تطلب العمل فانسابتا فى الحديث والكلام تسلية للوقت، تعرفتا على بعضهما واستأنستا الحديث لقرب سكنهما، فالأثنتان يقطنان حى المعصرة، وفى تعاقبهما بالحديث عن أحوال بعضهما وتعقيبهما على الوظيفة التى لم ينلنها نصحتها رفيقة يومها بزيارة مكتبة المعادى للاطلاع؛ وحتى يتسنى لهما رؤية كل منهما الأخرى، رحبت رجاء بعرضها لميلها الأدبى وفضولها على المعرفة والعلم، ومن حينها بدأت رجاء تتردد بصورة منتظمة على المكتبة، وسايرت أعواما أربع بشغف القراءة والأطلاع وتناست مطلبها المهنى وأغفلت أمر الوظيفة وانغمست فى طيات الكتب وانكبت عليها وهامت فى سرد القصص والروايات، لتبدأ من حين لقائها بتلك الفتاة حياة لا تدرى ما ستؤول إليه من مقادير ومصائر متخفية فى ثياب المجهول والمستقبل.

* * *

ذكرى (٢)

بعد شهر من وفاة الشيخ «هلال»

على البساط العائلى حول المائدة الأسرية كان يلتف محمود وعن يمينه أبوها ومقابله أمه يتناولون وجبة العشاء المكونة من الأرز وقطع السمك التى تغطى وجه الطبق وأرغفة الخبز الساخن، فرغوا من عشائهم ورفعت المائدة بعدما صارت خوانا وعبارات الحمد تليت على الختام.

بصوتها الأنثوى الذى طبّعه بحر الساحل، فتارة هادئًا وتارة هائجًا ثائرًا:

– نعمل لكم شاى؟

يرد أبو محمود وهو يستند على الوسادة:

– اعملى يا أم محمود .

وهى قاصدة المطبخ:

– حاضر.

يقترب محمود من أبيه بلطافة مكشوفة – ولو كان يدخن السجائر لأخرج العلبة وعزم على والده بواحدة:

– إيه إصة محمد ابن الشيخ هلال؟ أنت قلت هنحكوها لك يابای؟!

نظر إليه ورد:

– أيووووه، أنا مش عارف الموضوع دا معلق معاك ليه؟ عايز تعرفو إيه يا حودة؟

– أحكى لى على الأصة كلها، عايز نعرفو كلة حاجة عنه.

– ماشى وأحنا بنشربوا الشاى.

دقائق وعادت أم محمود بصنية الشاى وضعتها وذهبت للداخل، لعل أمرا فى المطبخ يستدعيها، رفع كوب الشاى إلى فيه وارتشف منه، لا رشف رشفةً، كأنه يغيظ أحدهم هكذا يحب أن يشرب الشاى.

أبو محمود:

– فى يوم يا حودة أبوك كان قاعد مع جدك الشيخ هلال – الله يرحمه – فى الجامع بين المغربية والعشا، لاحظت أن الشيخ مهموم مش زى ما بنشوفوه سألته: مالك ياعم هلال؟

– سند جدك الشيخ ضهره على عمود الجامع وقال لى: عارف يا أبو محمود الليلة دى بتفكرنى بابنى محمد. عين الحاكى كانت شاردة مع الماضى لكن مع تلك الجملة نظر لابنه محمود وكأنه يشعر بخوف تجاهه، ثم أكمل الشيخ قال لى فى الليلة دىَّ جى محمد وفرّحه بنتيجة الثانوية وانه جاب ٩٩٪ الشيخ كان بيقول أن محمد كان شاطر.. كان شاطر لدرجة أنه كان بيذاكر

لزمايلـه فـى المدرسـة، قـال لى انـه كان شـغوف قـوى بالتعليـم وكان بيحـب العلـوم حتـى أنـه فـى اجـازة الصيـف أخـترع محـرك بيشـتغل بالبخـار، البخـار ذكـره بالشـاى فشـفط شـفطتين لأن الشـاى أصابتـه الـبرودة، عمـل الأخـتراع وعرضـه علـى المدرسـة و المدرسـة كرمتـه وعملـت لـه حفلـة وبعتـت الأخـتراع للـوزارة بعتـ قاطعـه محمـود: تلاقـى الـوزارة ادّت محمـد فلـوس كتـيرة علـى كـدا؟

ضحك متحسراً ورد:

– جـدك قـال لى الـوزارة ماردتـش ولا حتـى بجـواب، بعـد كـدا الشـيخ هـلال نصـح محمـد أنـه يركـز فـى المذاكـرة ومـا يشـتتش ذهنـه فـى الأختراعـات، والمذاكـرة أهـم، محمـد انصـاع لنصيحـة أبـوه وركـز فـى المذاكـرة، سمـع كلام أبـوه يـا حـودة هـا. (قالهـا لمحمـود وهـو بيربـت علـى كتفـه) ولمـا جـاب مجمـوع عـالى فـى الثانويـة جـدك هـلال الحَّ عليـه واقاربـه يدخـل طـب عشـان يطلـع دكتـور قـد الدنيـا ويمشـوا يفتخـروا بيـه بـين الخلـق، بـس محمـد كان عايـز يخشـو كليـة العلـوم عشـان شـايف دماغـه فيهـا وهيخـترع فيهـا، محمـود يقـول لهـم: أنـا عايـز نخشـو العلـوم وهمـا يقولـو كليـة الطـب تطلعـو دكتـور حـد يطولـو دا، محمـد سمـع كلامهـم ودخـل كليـة الطـب عشـان يطلـع دكتـور ويمشـوا يفتخـرو بيـه بـين الخلـق، وعشـان هـو مـا بيحبـش الكليـة مـا نجحـش اول سـنة وحـوِّل لكليـة العلـوم، طلـع صـوت محمـود كنبتـة النجيلـة بـين عيـدان الـذرة وقـال: كليـة الأختراعـات، رد والـده: جـدك هـلال قـال لى أن محمـد قـال لـه أنـه هيتفوقـو فيهـا ويبقـى أحسـن م الدكتـور ثـم أومـأ بسـبابة اليمنـى وقـال: شـايف السـبحة اللـى متعلقـة علـى صـورة جـدك هـلال دى؟

فـى التـو نظـر محمـود للصـورة والمسـبحة، الصـورة مـبرّوزة (موضوعـة فـى إطـار خشـبى زجاجـى) محمـود مـن وضعهـا فـى هـذا الأطـار تخليـد ووفـاءاً لذكـرى الشـيخ، الصـورة كانـت فـى مقابلـه مباشـرة علـى الحائـط بجـوار سـاعة الحائـط .

– أنـت عـارف يامحمـود ليـه السـبحة دىَّ كانـت غاليـة علـى جـدك الشـيخ هـلال؟ ولمـا اتقطعـت هـو بنفسـه عقدهـا تانـى ومارضيـش نجبيولـو وحدهـا غيرهـا؟

محمود: ليه؟

رد وقطـرات الدمـوع تسـبق حروفـه إلى خـده: عشـان محمد هـو اللى اشـتراها لجـدك فـى أول يـوم راح فيه كليـة العلوم، عدى على الحسـين واشـتراها لـه، ثـم مسـح دموعـه قبـل أن تداعـب عـين ابنـه محمـود الـذى ظـل عاكفـا نظـره علـى صـورة الشـيخ كأنـه هـو الـذى يكلمـه.

– الهديـة يابنـى مـش بثمنهـا ولا قيمتهـا، الهديـة بقيمـة الهـادى والمهـدى، سـبحة جـدك «هـلال» مكنـش تمنهـا غـالى ولافريـدة مـن نوعهـا بـس كانـت هديـة مـن شـخص غالـي، قالهـا ولم يسـتطع سـد مجـرى الدمـوع الـذى أغـرق وجنتيـه – هربـت الدمـوع بـلا اسـتئذان – فقـد تذكـر مشـهد بـكاء الحـاج «هلال» كـم كان مشـهد يفيـض بالدموع!

قطعـت الحديـث بجملتهـا: سـيب أبـوك يامحمـود، الشـاى بـرد يا أبـو محمـود، هـى تـدرى مـا تحملـه هـذه القصـة مـن مأسـى وأحـزان؛ أبـو محمـود قـد حكاهـا سـابقا.

يكفكـف دموعـه التـى بللـت خـده وهـو يحتسـى الشـاى ! دخـل محمـود غرفتـه ومازالـت عيناهـا تنظـر للصـورة والمسـبح.

أشباه أحياء (الفقر٣)

دخلت سيارتهم التجمع الخامس وقفت فى ساحة موقع إنشاءات عبارة عن هياكل خرسانية لبعض الفيّلات والقصور، التى تبنى لأصحاب الثراء والسلطة فى هذا البلد الفقير أغلبه. .!!

الرمال والحصى .. والزلط الأسمنت، الحديد,الخشب ,السقالأت، براميل المياه، كناتين تبيع شيئا يسمى أكل يسكت به العمال جوعهم الكافر، كل هذه الأشياء هى سكان الموقع مؤقتا مازال الموقع تحت الأنشاء والتعمير.

يوزع المقاول العمال على مواقع العمل:

أنت فيلا ٧٣ خمّر مونتك وبيّض فى الصالة،

وانت خد خمسة معاك وروح نضف فيلا ٦٦

وانت اشتغل فى ارضية حمام فيلا٥٥ هناك كل حاجة كراتين السيرامك تحت الفيلا، خلى العامل يطلعها لك.

وانت روح لف الدِروة الطوب متشون عليها، وانت شون الألفين طوبة على الدور الثاني، وانت، وانت..، وكل شخص يوزع يتم له توجيه: اتجدعن شوية وشيد حيلك، امبارح انت عجزت،

وبعدما يفرغ من توزيع العمال وتوجيههم يركن إلى مكان لا تراه فيه الشمس وينام حتى يفرغ العمال من عملهم.

نيبل جاء توزيعه مع المعلم فريد صانع المحارة رجل فى الثلاثين بشرته سوداء تضفى على ملامحه وسامة مع ذقنه الخفيفة وشاربه القصير:

– كنت هتأخرنا النهاردة يا نبيل.

– ماعلهش يا معلم انت عارف انى مابطلعش الشغل من زمان.

– شد حيلك واشتغل عشان أمك العيانة.

– والله ياسطى باتعب من المونة الحساسية بقى، وأنت شايف باعافر، هنخمر المونة فين؟

– فى الأوضة الشمال اللى فى وش المطبخ، (ثم ببلادة واستخفاف)هتقدر تشيل الأسمنت يا نبيل؟

يرد بوجوم وتكدر، فقد حملَ همّ حِمل الشيكاره قبل أن يحملها:

– أدخّل كم شيكارة؟

– أربعة اصطباحة دى الوقت وانا جاى أشيل معاك. قالها لنبيل دون مراعاة لعافيته المنعدمة.

بعناء شديد نقل نبيل عبوات الأسمنت من الدور السفلى وأفرغه على صندوق رمل وبدأ بتقليب الأسمنت والرمل معاً بالكوريك وهو يفعل ذلك:

– شكل الحيطان دىَّ بايظه وهتاخد مونة كتير يا اسطى فى المحارة؟

ينفث ما يكوّن مزيجًا فعالأ مع غبار الأسمنت فى سد رئتيه ويصدأ مسورة حلقومه:

– لأ يا نبيل هما شيكارتين تانى ولا تلاتة وخلاص بس عايزين نتجدعن، المعلم بيخصم للى بيعجّز فى الشغل ما بيرحمش، شد حيلك معايا.

جهزا الملاط فكأنهما يقفان أمام مطحنة دقيق؛ غبار الأسمنت كسا وجههما وسد حلقوههما، وهو يسعل ويبصق ترابًا:

– يلا يا نبيل نفطر هات ورقة شيكارة نفرش عليها الأكل وولع خشبتين على غلاية الشاي.

وضعت مائدة الأفطار على ورقة كانت من قبل موضوعا فى جوفها أسمنت ضار بالصحة. المائدة عبارة عن كيس فول بارد وأقراص طعمية تشبعت بالزيت الأصفر، وأصابع بطاطس أسودت من القلي. الزيت طغا على المائدة، مائدة زيتية بنكهة الأسمنت.

أكلا وشربا الشاى وقاما للعمل. صندوق من المونة (الملاط) ينتظرهما كما ينتظر السِّباخ الحمارَ.

«بسم الله». قالها المعلم بلا قصد. ناوله نبيل طالوش المونة ليلطمه على وجه الحائط، لن يرفع الكاهل حتى ينتهى من طريحته، أربعين مترا أى ما يعادل أربعة حوائط غرفة كاملة هى مهمته حتى يقبض ماهيته، ماهيته التى لا تساوى ربع ربع ما بذل من مجهود من أجلها.

عـاد نبيـل إلى بيتـه منهمـكا يعانـى شـدة النَّصـب، بعـد عمـل يـوم شـاق فـى أعمـال المحـارة أتربـة الأسمنـت ونقـع الرمـال تغـبر وجهـه، ألقـى بجسـده علـى الكنبـة يسـتريح بعـض الوقـت، عودتـه تشـبه عـودة الجنـدى مـن ٦٧ كلـه قـروح وجـروح.

ذكرى (٣)

لم يهدأ له بال منذ الصباح، «هتكمل لى قصة محمد، عايزين نعرفوها « جملة عزف بها كثيراً على طبلة أذن أبيه حتى كادت أن تنخرم من صداها.

جلسا بعد الفراغ من المطعم يكمل له أبوه بقية القصة:

– وعمل إيه بعد ما دخل كلية العلوم؟ هو اخترع حاجة؟ (يقولها بابتسامة).

– يامحمود، كلية العلوم مش هى بس كلية الأختراعات، بس محمد كان حاببها وحابب مجال العلوم.

محمود يهز رأسه كأن إعلاميا يحاور بروفيسور، ثم أردف أبوه:

– اجتهد محمد وذاكر ونجح فى أول سنة وكمل واتخرج من الكلية، جدك هلال قال: جاب تقدير كويس كان الأول على زمايله والكلية كرمته وطلع بعثة لأمريكا عشان يتعلم هناك.

قاطعه محمود:

– هو محمد هيعرف يكلم بتوع أمريكا دول بيبرطموا؟

ابتسم وأجابه:

– أيوه، محمد كان بيعرف يبرطم زيهم، جدك هلال جاب له البتاع دا اسمه إيه.. آه الكمبيوتر لمحمد.

ثم سكت عن السرد فسأله محمود:

– وبعد كدا؟

رد:

– العشا اذنت وقمنا أنا وجدك عشان نتوضو

قالها فى ضجر:

– وجدى ما كملكش الحكاية؟

– لأ كملها تانى يوم قعدنا بردوا بعد المغرب وسألته محمد عمل إيه فى أمريكا؟

– قال لك إيه جدى؟

– الشيخ هلال ليليتها يابنى وهو بيكلمنى سرح وقال لى وهو زعلان ياريت محمد ما كان راح أمريكا، قلت له ليه ياحاج؟

قال لى: محمد كان مع دراسته فى أمريكا كان بيعمل مشروع، جدك قال كان هيبقى حاجة كبيرة لو عمله، بس بتوع أمريكا قالوا له:

تعمل المشروع باسمنا واحنا هنساعدك، بس محمد مارضيش ورفض، قال لهم:

– هعمله باسمى وعشان بلده.

قاطعه محمود كعادته :

– الشرقية ..؟

– لأ يـا محمـود ,بلـده مصـر، هـو كان عايـز يخلـى المشـروع لمصـر مـش لأمريـكا وبعـد فـترة يـا بنـى نـزل مصـر عشـان يـزور أهلـه وهـو راجـع عمـل حادثـة عربيـة صدمتـه وجـدك قـال لى أنهـم شـكوا فـى ان الحادثـة مقصـودة بـس همـا اسـتعوضوا ربنـا فـى ابنهـم، سـيبك بقـى مـن القصـة دى يـا حـودة وبـلاش تكلمنـى فيهـا تانـى.

* * *

(خالد ١)

مستشفى السلام بالأسكندرية

رجلان صحباه إلى المستشفى ليسعفا المصاب الذى صدمه بسيارته انزلاه من السيارة. أتى المرضون يرتدون الثياب الزرقاء وضعوه على الترولى، الدم ينزف من رأسه وأنفه. أدخلوه إلى الممر المؤدى لغرفة العمليات صاح أحدهم:

– حادثة حادثة، نادى على الدكتور نشأت بسرعة.

الاثنان يتبادلان الحديث معا وهو يلف ويدور كالنحلة لم يهدأ منذ الحادثة خَوت المستشفى ومن حواليه من أطباء وممرضين ومرضى وزوار، نادت عليه ترتدى الثياب الملائكى الأبيض بلوزة تتدلى حتى ركبتيها وبنطلون فضفاض، تغطى رأسها بشال أبيض، وجهها أبيض كلها أبيض فى أبيض تنادى عليه:

– يا أستاذ، حضرتك أنت مع اللى جاى فى حادثة عربية؟

رد عليها بصوت متقطع من القلق:

– آه، آه

– تعالى سجل البيانات.

فتحت سجل البيانات خانات أفقية:

التاريخ، اسم الحالة، نوع الأصابة، الدخول الخروج،

تسأله بعدما ملأت خانات التاريخ والدخول ونوع الأصابة:

– اسمه إيه؟

رد مضطربًا:

– مش عارف.

شددت حاجبيها وقالت:

– مش عارف..

ثم متسائلة:

– أنت مش قريبه؟

رد:

– لأ. أنا جى معاه ومش، منتـ ، تلعثم فى الرد وجرى الدم فى خلايا وجهه، لاحظت توتره فنظرت إليه وقالت:

– هات بطاقة حضرتك آخد منها البيانات عشان العملية.

مد يده وأخرج المحفظة من جيبه وسحب منها البطاقة ومدها اليها. أخذت منه البطاقة وكأنها تأخذ روحه معها، الخوف يرعبه من المجهول.

ملأت البيانات وردت له بطاقته وسمحت له أن يستريح.

دخل أستاذ (سالم) وهو نزيف غرفة العماليات رئتاه مازالتا تسحب الأكسجين من الهواء، مازال فيه النفس.

خرج أحد الأطباء إلى الثلاثة الذين أتوا مع المصاب وأخبرهم بأن ينتظروا والأ لن يطببوا المصاب ولن يجروا له العملية – أنها مسئولية– تيقن الذى صدمه أنه متهم لا محالة ولا مناص من تلك المصيبة سوى الأنتظار لفرج الله. هو لم يقصد أن يصدمه لكن هذا مبرر لا يعتد به .

ينظر إلى هذين الأثنين اللذين حضرا معه إلى المستشفى حتى لايفر من فعلته كان يظن ذلك.

يفوض أمره لله وينتظر الفرج: «الله يعلم براءتى و كفى».

جلس الثلاثة فى صالة الأستقبال منتظرين أحد الأطباء أن يأتيهم ويطمئنهم على المصاب فى وقت الانتظار، تعرفوا على بعضهم .دقائق وأتى المُحضر الجنائى ليثبت الحالة، متوسط القامة فى العقد الخامس يرتدى قميصاً وبنطالاً ونظارة قراءة تتدلى منها سلسلة على جيده فى يده تحت أبطه الأيمن ملف يدون فيه مثل أنه فى يوم كذ، الساعة كذا، قد تم إثبات كذا، وسماع كل من... وتم غلق المحضر بتاريخ / / .

أتى المحضر, جلس بين يدى الشرطى وهو والأثنان الأخران والخوف والتوتر كفيلانى بإدانته.

فتح المحضر:

اسم من حضر بالمصاب.

الأول.

الأسم: بلال إبراهيم بلال

السن اربعين عام

الوظيفة: خبير فى التنمية البشرية

المحضر : الحادثة حصلت ازاى؟

الدم يتدفق أكثر على وجهه والخوف يقتله دا هيقول إنى خبطته وهو بيعدى الطريق هيودينى فى داهية. كل هذا قاله مع نفسه قبل أن يأخذ الشاهد الأول شهيقه ليرد.

بلال: أنا والرجل دا، ويشير إلى الشاهد الثانى كنا واقفين على الطريق وشوفناه وهو بيعدى الطريق وشكله ماكنش مركز وهو بيعدى عربية ملاكى صدمته ومشيت وجبناه احنا التلاتة فى عربية الراجل دا ويشير للخائف الذى صدمه .

المحضر: خدت نمرة العربية؟

بلال أجاب بالنفى:

– لأ.

المحضر بشك أظهره وأبداه فى نبرته:

– ليه؟

بلال بهدوء وثقة:

– ملحقناش.

المحضر يوجه سؤاله للشاهد الثانى: اسمك؟

– مسعد سعد.

المحضر بنبرة مرتابة:

– إيه اللى حصل؟

مسعد:

– وزى الأستاذ بلال ما قال لحضرتك.

المحضر ينظر له من تحت نظارته قائلا:

– متأكد؟

مسعد سعد يضع كفه على فمه:

– آه متأكد .

ينتقل بالسؤال للثالث، صاحب الحادثة الذى هدأ قليلا بإجابة الأخرين أخرجوه من المعضلة الجنائية.

المحضر:

– اسمك؟

– خالد سعيد محمد .

المحضر: الحادثة حصلت ازاى؟

أراد الشرطى أن يربكه بهذا السؤال لأنه يشك فى إجابة الأثنين والخوف فاضح على وجه خالد.

خالد اذدرد ريقه ورد:

– أنا كنت راكن العربية وواقف سمعت الأستاذ بلال سعد بينادى عليه عشان انقل معاهم المصاب للمستشفى.

لاحظ الشرطى ارتباكه فسأله:

– مين الأستاذ بلال سعد؟

أشار خالد لمسعد سعد فهز المحضر رأسه وأمرهم بالتوقيع فوقّع الثلاثة ورحل المحضر ومن وراءه مسعد سعد وتبقى فى المستشفى بلال خبير التنمية البشرة وخالد مسبب الحادثة.

بلال بعدما جلسا معًا فترة من الوقت:

– يا راجل أنت كنت هاتضيع نفسك وتضيعنا معاك.

جلسا معا يتعارفان. بلال إبراهيم بلال خبير تنمية بشرية متخصص فى علم الفراسة وتحليل الشخصيات، فى العقد الخامس من عمره. طويل القامة، وجهه مستدير، شفته السفلى ممتلئة، حاجباه مقوسان على عينه، بنيانه رياضي، لحيته خفيفة قصيرة بيضاء، يلبس نظارة، يحب المداعبة.

وهذا خالد سعيد خالد تخطى الثلاثين بعام واحد، تخرج فى كلية خدمة اجتماعية من عام ٢٠٠٩ متوسط ألقامة، متواضع الوسامة، وجهه مثلث جبهته بارزة بعض الشيء، قوامه يميل للسمنة، مطلق، يعمل سائق تاكسى، مقحم نفسه فى النضال السياسي؛ لذلك يقضى معظم وقته فى الضيافة الأمنية

* * *

ضحية قضية (٢)

بعد عامين من صحبة الكتب فى المكتبة

– فين الرواية يا أستاذة ريحانة؟

ريحانة تعدل من وضع نظارتها التى كانت مسدلة على أنفها وتعيدها على عينيها:

– استعارها أحمد عشان يقرأها، عجبيته فأخدها .

رجاء متسائلة:

– مين أحمد دا؟

ريحانة:

– شاب تلاتينى وفد على المكتبة بصحبة إسلام.

امتعضت وأردفت متسائلة:

– امتى أخدها؟

ردت ريحانة:

– أول أمبارح وهيجبها يوم السبت الجاي، شوفى حاجة غيرها واقريها .

ترد:

– حاضر (وهى تتجه ناحية رفوف القصص والروايات).

هه هه هه... تمرر رجاء سبابتها على الكتب المرصوصة وهى تغمم بعناوين الكتب، تأمل أن يجذبها عنوان كتاب أو تعثر على آخر تعرفه فتسحبه وتقرأه.

تسحب رواية من ثنايا الكتب الأخرى –كما يسحب القائد جندا – من الصف – العنوان يوحى بشيء ما.

لم تحل النظر لتعرف لون الغلاف أو اسم المؤلف، قد أخذها فضول المعرفة وانهالت على الصفحات الأولى لتكتشف ما بها.

لم تك رجاء وصلت لمقعدها على منضدة القراءة المنصوبة وسط عرصة المكتبة وقد قرأت أولى صفحات الرواية. تجلس على الكرسى وهى مازالت تكرر وتعيد قراءة مستهل الرواية.

تأكدت من جلستها وطوت مصرعى الرواية على سبابتها حتى تعاود ما توقفت قراءتها عندها ومازالت تتمتم ببيت شعر حفظته.

يشرد نظرها إلى سقف المكتبة بعدما انثيت قليلا للوراء. أسرتها حالة من الانبهار والإعجاب بمستهل الرواية. يبدو أن الكاتب يخبيء شيئًا عميقًا فى طياتها. هكذا حدثت رجاء نفسها.

تفتح الرواية وتعاود القراءة ثانية بتمعنٍ واستمتاع تتأمل الكلمات المنثورة على السطور كلمة كلمة وأحيانا تعيد بعض الجمل قراءة.

رجاء هامت وساحت في الروايات الرومانسية فلا غرو أن تسال عن رواية (كبرياء وتحامل)

جاءت أستاذة ريحانة ومعها قدحان مملوءان بمشروب الشاى.

– إتفضلى يارجاء الشاى.

تكرر :

– اتفضلى يا رجاء الشاى كوبايتك يابنتى.

تمد رجاء يدها لتأخذ الكوب دون همس أو نظر، استحوذت عليها الرواية بكلماتها وأسرتها بين سطورها وسبتها بخيالها.

ريحانة لم تكن تدرك أن رجاء مولعة بقراءة القصص والروايات وتندمج فى قراءتها.

رجاء تقرأ، ريحانة ترشف، الباب يقرع.

كعادته يقرع الباب قبل الدخول يلقى السلام: السلام عليكم ورحمة الله.

شاب ثلاثينى كما قالت أستاذة ريحانة. يطول رجاء قليلا، وسيم، وجهه مستطيل، رزين وهاديء كليل الخريف.

ردت ريحانة السلام، وفى سرها ردت رجاء دون أن تنظر لمن دخل أو ألقى السلام مغمدة غلاف روايتها.

جلس فرحبت به الأستاذة ريحانة:

– مرحبا يا أستاذ أحمد.

عندها لحظت رجاء، ونظرت إليه بنصف عينٍ خجلة.

ريحانة:

– أعرفكم .. وقبل أن يجيباها أكملت : دا الأستاذ أحمد.

رجاء تكمل النظرة وتقول:

– أهلاً بابتسام خفيف مستحى.

ريحانه تعرّف له برجاء:

– أستاذة رجاء

يرد الترحيب والابتسام هو الأخر لرجاء بهدوء وسكينة، بعد التعارف الشكلى والابتسام المصطنع، كل منهما جلس وراحا يتحدثان مع الكتب وريحانة تغدو وتروح لا تستقر فى جلسة.

من أول وهلة رأى فيها أحمد رجاء ببسمتها المنطوية تحت حيائها، ورغم أنه فى أول لقاء جمعهما، هذا اللقاء القليل بالنظرات والعديم بالكلمات، أخذ قلب أحمد يميل لها وعقله يفكر بها، وتكررت المقابلات غير المقصودة فى المكتبة ولم تزد رجاء عن البسمة المفطورعليها ثغرها والكلمات التى تجيب بها عن كلام يوجه لها، وأحمد يتابعها بنظراته وتأملاته المحظورة من خلف حجاب الأعجاب وقلبه وعقله ينشغلان بها أكثر فأكثر، وكلما رأى من رجاء ما يعجبه نمت نبتة الحب فى صحراء

قلب الأعزب أحمد حتى جاء اليوم الذى أعلن فيه عن مشاعره لرجاء التى كانت تخفى هى الأخرى إعجابًا وميًلا تجاهه؛ لتثمر هذه النبتة عن ثمرة حبٍ تفتّحت زهرتها فى بستان الرومانسية الطاهرة، هذا الحب الذى تقدّست فيها المشاعر وصلّى كل من الطرفين من أجل حبهما.

عادت إلى البيت ونشوة السعادة تغمرها، تقصد غرفتها بسرعة حتى لا تراها أمها، أمها التى مازالت متقوقعة فى موضة العادات والتقاليد الريفية التى تلاشت مع انجراف المبانى على الأراضى الزراعية هناك فى عزبة مزغونة حيث موطنهم الأصلى، ومع اقتحام العولمة المدنية والانفتاح التكنولوجى بدءا من وصلة الدش مرورا بالطبق الذى اعتلى أسطح كل منازل القرية وتلاشت على إثره زلعة الجبنة الموروثة عن أجدادنا ولا أدرى لماذا هذه المفارقة العجيبة. .!! هل لا يتسع السطح للطبق والزلعة معا؟

ولا ننسى محل (الأتاري) الذى تحول بقدرة قادر إلى (سيبر) عملاق!! مزود بالشبكة العنكبوتية وأجهزة البلاستيشن ٢و٣ – رحم الله ارنوب وكابتن ماجى أيام ما كان الواحد يحتقر الجهاز لحسابه ٧٥ قرشا، طبعا لا نغفل دور القنوات الفضائية التى تبث التحرر الأخلاقى فى برامجها التافهة ودرامياتها االسقطة هى حجر الزاوية ومعها (الفيز بوك)

لله أمره فيمن اخترع الفيس بوك وجعله خدمه مجانية متاحة للجميع لدرجة ان ينبهك إشعار على الفيس تفتحه فتجد ابن خالك باعثًا لك بطلب صداقة متصور سيلفى وهو ممتطى ظهر أتانته الذى نصحه المعلم فى الأبتدائية قائلًا له:

– خدها يابنى من قصيرها وبلاش تعليم لبلادة عقله.

لكن لا بأس من هذا انها العولمة . نعود لرجاء التي تتسلل بهدوء تجاه غرفتها؛أن لمحتها أمها إذن (س وجـ).

لا وقت لنزالك يا أمى بالنقاش والمجادلة بسبب التأخير؛ فأنا الأن بحاجة لخلوة رومانسية مع مخيلتي، بهذا ينصحها قلبها، وهى لا تكاد تلامس باطن قدميها السجادة الرمادية المفروشة على أرضية البهو وهى تهرع إلى غرفتها خشية أن تشعر بها أو تراها أمها.

رحلة التسلل والعبور إلى غرفتها تمت ونجحت بسلام، دلفت إلى الداخل وأحكمت إغلاق باب الغرفة ووصدته بالمفتاح– كما فعلت امراة العزيز – غلقت الأبواب وقالت: (هيت لك) لا، هذه الفتاة على خلق ودين لن تراود غير خيالها فحسب، تقوم بلفة دورانية وسط غرفتها، صانعة تنورة وهمية بذراعيها تعبيرا عن حالة الطغيان العاطغى السيروتونين يشعل طاقاتها لم تجد غير تلك الرقصة الدورانية لتفرغ بعضا منها – كثيرا ما اطلعنا أن تلك الحالأت تزيد من إفرازات الجسم السيروتونين. من يحب يفعل المستحيل .. صدقوا.

بسبب السيروتونين..من حقها أن تصفد الباب، ماذا لو رأتها أمها وهى ترقص هكذا لن يكون سوى التوبيخ وشراء نعل جديد غير الذى بدد على جسم تلك الفتاة الهيوم.

بعد رقاصات أشبعت بها رغبتها فى التعبيرعن حالة الطوفان العاطفى التى صحبتها منذ اللقاء السعيد، مسبب تلك الأرهاصات العاطفية فى داخل انثى عذراء متخفية وراء حياءها المعزول عن

النـزوات الرومانتيكيـة المبعثـرة فـى كل ركـن فـى حديقـة، أو مقعـد فـى قاعـة سـينما، أو جلسـة ومشـية علـى شـط النيـل، أو حتـى مقابلـة بعد العمـل، أو نظـرة مـع بسـمة جريئـة أو.. أو..

تسـتلقى الفتـاة – الغارقـة فـى فيضـان السـيروتونين – بظهرهـا علـى سـريرها وتغمـض عينيهـا بعدمـا تنهـدت، تاركـة العنـان لشـريط الذكريـات أن يكـر لحظـات اللقـاء السـعيد لحظـة لحظـة فـى مخيلتها.

هـذا اللقـاء الـذى أعلـن فيـه أحمـد عـن مشـاعره تجـاه رجـاء وأخبرهـا أنـه سـيزورهم فـى منزلهـم إن وافقـت وتفهمـت مشـاعره، ليأتـى اللقـاء بالأسـرتين وتقـرأ فاتحـة الخطوبـة لأحمـد ورجـاء.

تجلـس أمـام مـرآة هندامهـا (التسـريحة) على مقعـد مسـتدير، مبطن بالأسـفنج المطاطـى. تحـل طرحـة الحجـاب التـى تغطـى رأسـها وتلقـى بهـا علـى سـريرها، فكت العقـدة وهزت رأسـها فتموج شـعرها الحريرى الطويـل وانسـدل علـى كتفهـا وظهرهـا، أمسـكت ببعـض خصيـلات شـعرها المنسـدل بعقلـة السـبابة ولوتهـا وهـى تنظـر فـى وجـه المـرآة.

تتذكر ما حدث معها اليوم، تستعيد المشهد فى مخيلتها.

تـراه يهمـس إليهـا بخطواتـه.. يقـف خلفهـا.. ينثنـى إليهـا، بأطـراف كفيـه يلـف العقـد علـى جيدهـا، تبتسـم هـى وتنظـر إليـه فـإذا هـو يقبـل جبينهـا، بقبلـةٍ تحمـل فـى حرارتهـا منتهـى المحبـة والـود، قبلـة الوفـاء والأخـلاص المتبـادل، حـرارة الشـوق والعشـق الطاهـر تلتهـب بهمـا أنفـاس قبلتـه، تمسـك بيدهـا اليمنـى كفـه اليسـرى وتلامـس بهـا خدهـا، ترخـى جفـون عينيهـا وتتوسـد باطـن كفـه، داعبـت خدهـا بكفـه لتشـعر بالحنـان المتدفـق.

هى لايهمها أكان هذا العِقد ذهبا، أم فضة؟

تكفى هذه العاطفة الرومانتيكية الملتهبة، وهذا الأحساس المشتعل.

يا له من مشهد كان رائعًا أن لعب الخيال فيه بكل حرفية وإتقان؛ ليضفى على رجاء حالة من الإيجابية والأمل. تقوم رجاء من أمام المرآة لتحضر مع أمها وجبة الغذاء، والدها أوشك على العودة من العمل، تكتمل المائدة الأسرية بعودته من العمل فى تلك الساعة الرابعة عصرًا.

خرجت رجاء من خدرها إلى ساحة البيت بعدما بدّلت ملابسها بأخرى، تغمرها انتعاشة روحية, وتحيط بها هالة من السعادة ,تنادى:

– أمى أمى ,ماما..

أمها وهى فى المطبخ :

– نعم يا رجاء

رجاء:

– هنجهز فى الغدا إيه يا؟

أمها مستنكرة عليها فعلتها:

– هنجهز إيه ..لا مش هنجهز.

تقول رجاء وهى تقترب من المطبخ:

– ليه.. احنا مش صايمين النهاردة ؟.

أمها :

– أيـوة يـا حبيبتـى ,مـش صايمـين بـس خـلاص جهـزت الغـدا وانـتِ مطنشـة براحتـك يارجـاء.

رجـاء تقـترب مـن أمهـا وتحتضـن كتفهـا مـن الخلـف وتقـول في دلال :

– انتِ البركة ياست الكل.

نشوة السعادة من المشهد الخيالى لم تنمحَ من واقع رجاء بعد ! !

أمرتهـا أمهـا بـأن تأخـذ الأطبـاق وتضعهـا علـى الخـوان لتعـد المائـدة.

٢٠١٢/٦/٢٥ الساعة ٥ مساء

فـى مقـر العمـل الصحفـى كان أحمـد يفـرّغ مـن آلـة التصويـر محتواهـا الفوتوغرافـى الـذى التقطتـه مـن أحـداث الشـارع وقتهـا ؛فشـوارع مصـر أيامهـا كانـت تعـج بالأفـراح والإحتفـالات الشـعبية..

كان هـذا فـى المكتـب الـذى كان يضـم أحمد واثنين مـن زملاء العمل بجانـب رفـوف الملفـات والمنضـدات الخشـبية الموضـوع عليهـا أجهـزة الحاسـوب، والمبعثـرة عليهـا الأقـلام وبعـض الوريقـات. زميلـه الـذى كان يحـاول تثبيـت قلمـه – علـى مكتبـه – فـى شئ مـن الأختبـار :

– أنـت مبسـوط علـى الأخـر ياعـم أحمـد والدنيـا رايقـة معـاك إيه؟

كان هذا صوت رفيقه فى العمل والحياة

أحمد يبدو عليه الأبتهاج والسرور:

– يـا عـم دى مصـر كلهـا مبسـوطة النهـاردة، أنـت مانزلتش الشـارع وشـفت الإحتفـالات؟ ولا أنـت عشـان كنـت واحـد مننـا مـش هتفـرح زينـا؟! عايزيـن نتكاتـف عشـان مصر،ثـم بنـبرة فخرواعتـزاز:

– ولا أنتم هتزعلوا منها عشان اختارت ؟

فرد صاحبه وقد أبدى اللامبلاة لفخر الأخير:

– لا ياعـم احنـا ولا هنزعـل ولا هنفـرح احنـا هنتفـرج لـما نشـوف هيعملـوا إيـه اللـى مصـر اختارتهـم و»النهضـة إرادة شـعب». قالهـا باتسـامة تنكـر مـا يشـعره ويخفيـه .

يرد أحمد سائلًا:

– يعنى هتتفرجوا مش هتشمروا عن سواعد المساعدة؟

– ياعـم دى نهضتكـم انتـم وانتـم الأدرى بيهـا.. وربنـا يوفقكـم. احنـا نكـره؟ ثـم أردف بشـيء مـن الاسـتهتار :ياريـت بـس تقـدروا.

– أى ياعـم صيغـة أنتـم ونهضتكـم؟ محسسـنى أنـى رئيـس شـعبة فـى الجماعـة. ياعـم أنـى مـع اللـى هيصلـح، وعلـى العمـوم مـش تبـارك لـي، أنـا خطبـت.

يبتسم ويقول:

– أللللف مبرووك يا برنس، والله وعملوها الرجالة.

– عقبالك.

– ماشى بس لما يبان لمصر ملامح ونشوفها هتروح على فين؟

– ياعم، ما الأمور استقرت مصر بقت دولة، رئيس منتخب والدستور فى السكة وبعده برلمان؛ والعجلة هتمشى والخير جاى.

– يا مسهل بس مش هاخطب دى الوقت .

* * *

بعد خطوبة أحمد ور جاء

يرن جرس شقتهم فيهرع الصبى العابث ليفتح الباب وبرخامة صبي مدلل حد السخافة.

– هو أنت .. أدخل

أحمد يعيد رسم إبتسامته قبل أن تأتي أم رجاء فتزجر صبيها وترحب بالضيف:

– مرحب يا أستاذ أحمد ,الولد دا شقى شوية، بس ذكى وجدع .

– ربنا يخليه لكم ويبارك فيه.

– عمك جوه وجاى اتفضل.

جلس أحمد ثم جاء رب البيت وأخذا يتبادلان السلام والترحيب.

أحمد يشعر وهو داخل الحلقة الأسرية، المكون من الأب والأم والصبى العابث، إنه فى حراسة مشددة لهمساته ونظراته لرجاء ويتحين فرصة الأحتلاء بها ليعبر لها عن مكنوناته الرومانسية والعاطفية حتى جاءت اللحظة التى يتمناها.

– إيـه بابـا هيفضـل لازق لنـا كـدة هـو ماما؟ مـش عـارف اطلـع الكلمتـين اللـى محشـورين هنـا (وأشـار إلى حنجرتـه).

ردت عليه رجاء وهى تبتسم خجلا:

– إيه لازق لنا دى ومحشورين، كلامك بقى بلدى أووى .

– يا ستى ما تعلقيش وسبينى أقول الكلمتين.

وهى مازالت الأبتسامة تكسو وجهها وعينها تستحى ,قالت:

– قول الكلمتين.

أستحضر بدوره سحر أسلوبه التي عاهدته عليه وعشقته :

– بحبك وانتي فهماني, بحبك وانتي وحشاني .

اتسعت أبتسامتها ونظرت إليه وقالت باستحياء:

– وانا كمان (بصوت سقط منه النون).

– وانتِ كمان إيه؟

– وأنا كمان وحـ...

لم تكمـل الجملـة وقـد خرجـت عليهمـا أمهـا تحمـل فـى يدهـا صنيـة عليهـا كأسـان مملـؤان :

–أهلا يا أستاذ أحمد.

–أهلا بيكى يا تانت ..ازى حضرتك؟

–الحمدلله.

دقائق وخرج أبو رجاء لينتهى أمل أحمد بالأنفراد الرومانسى المنتظر مع (رجاء)

أحمد:

– أزيك ياعمى؟

قالها وهو يعض على نواجذه يئسا وغيظًا. لم يكن لأحمد ورجاء إلا اختلاس النظرات والبسمات والتحدث فى أمور غير ما يردان .

رجاء بصوت أقرب إلى للهمس متسائلة:

– كنت فين أمبارح ياحمد؟

فى الحقيقة هى تسأله لا لتعرف أين كان، إنما لتسمع صوته وتذكر اسمه.

احمد:

– كنت مع محمد صديقى فى التجمع، كان بيفرجنى على فيلته اللى بناها فى التجمع.

«عقبال فيلتنا يا قمر»، قالها فى سره وهو ينظر لرجاء؛ لأنه لا يستطيع البوح بها فى وجود هؤلاء الحراس (أمها وأبيها).

– عقبال فيلتك يا أستاذ (أحمد).

– أشكرك يا عمي، بس محمد أبوه مبسوط، ثم ضحك وقال:

– وارث ياعمى اللى زينا محتاج يحوّش على ما يعمل فيلا .

أم رجاء:

– مافيش حاجة كتيرة على ربنا يا بنى.

– أكيد يا تانت ونعم بالله، بالإجتهاد كل شىء ممكن.

بعدما يأس أحمد من الخلوة الرومانسية برجاء أستاذن بالذهاب؛ فهو لم يأتِ للحديث عن(محمد) صديقه والفيلل والعمارات وغيرها من حوارات تسلية الوقت. ودعته ماتيمها بالزيارة حتى الباب. خرج وهو يتنزل درجات السلم وكاد الصبى العابث أن يصطدم به؛ كان يركض كأنه فارٍ من جريمة ارتكبها راوغه أحمد: مش تسلم عليه ياد، نظر إليه وهو يلهث ههـ ههـ.. أنت كنـ هه كنت عندنا؟

احمد يلهث هو الأخر سخرية منه:

– آه كنت ههـ ههـ.. عنـ عنـ ..عندكم، عا عا ملت إيه المرة دى؟

لم يجبه العابث وركض لأعلى، نزل أحمد وسمع أصواتا تحت العمارة تقول:

والله لأدفع أبوه حق الأزاز اللى كسره واللب اللى اتبعتر.

نظر أحمد تجاه الصوت فوجده صاحب محل البقالة وقد كُسر زجاج الفاترينة، وبعثر حبات اللب على الأرض، حينها أدرك لمَ كان يركض ذلك الصبى العابث، ثم نظر إلى هاتفه وتأمل الكسر الذى أصابه وتصعب على نفسه ورحل.

فـى ليلـة هـذا اليـوم أخـذا يتبـادلان حديـث الهـوى والرومانسـية – الباهتـة – كعادتهمـا كل ليلـة.

– النهـاردة أنـا قلـت هعـرف أكلمـك شـوية، لكـن ولدتـك جـت فـى الوقـت الغلـط.

– ما احنا أدينا بنتكلم فى التليفون.

– لاااا (مـادا صوتـه) فـى فـرق بـين الـكلام فـى التليفـون وبـين مـا شـوفك وانـتِ بتتكلمـى ونقعـد مـع بعـض ونتكلـم.

بصوت هامس:

– إيه الفرق؟

رد بساحريته الحاضرة:

– لا، الفـرق كبيـير يـا حبيبتـى فـى فـرق بـين مـا أسمعـك فـى التليفـون، ودنـى بـس اللـى بتسـتمتع ومـا بـين مـا بشـوفك وانـتِ بتتكلمـى، ودنـى وعينـى وقلبـى بيسـتمتعوا بصوتـك

ثم يهدئ من نبرته ويهمس:

– بشـوف الحـروف وهـى طالعـة مـن شـفايفك وأنـت بتتكلمـي، انـا باحسـها باشمهـا، بـدوب لـما بترسـمى البسـمة علـى شـفايفك وخـدودك بتنـور بيهـا شـوفتى الفـرق اللـى أنـا محـروم منـه يارجـاء.

رجـاء تقعـد علـى سـريرها واضعـة سماعـة الأذن وتتلاعـب بالمايـك علـى شـفتيه تغمـض عينيهـا وتـذوب بتلـك الكلمـات فـى خيالهـا – ذابـت كحبيبـات السـكر فـى المـاء–

– رجاء، انتِ رحت فين؟

– معاك.

– وأنا معاكِ وانتِ جوايا، فى قلبى وخيالى وروحي، ؟

– وانـتِ جوايـا. قالتهـا رجـاء متأثـرة برتمـه في الـكلام كمـن يـردد مـع المغـني دون وعـي

– بجد؟

– آه بجـد، أنـت بعـد الـكلام دا حـد ممكـن يفـرط فيـك، أنـت بتقـول شـعر؟ ضاحكـةً قالتهـا لتـوارى خجلها؛فألهمـت ضحكتهـا وكلامهـا الأخـير قريحـة أحمـد النابضـة بالحـب فـزاد عزفـه علـى وتـره السـاحر :

– أنـتِ أكـبر مـن أن يقـال فيـكِ شـعر، انـتِ الشـعر، إنـتِ فـى حقيقتـك قصيـدة شـعر نفسـى أغنيهـا.

– غنيها.

– ما أقدرش!

– ليه ما تقدرش؟

– خايف ماعرفش أغنيها، لجمالها، لجلالها

ثم ضحك واردف بنبرة سريعة:

– صوتى مش كويس اصحابى بيقولوا كدا وضحك بلطف.

– وأنا باقول صوتك جميل .

– ورأى اصحابى فيه؟

– مـع احترامـى ليهـم، لكـن رأيهـم غلـط ومالـوش قيمـة، وانـا مـا يهمنـى رأى النـاس فيـك، أنـا مقتنعـة بيـك وبصوتـك.

– هتدبسى فى صوتي؟

– أحلى تدبيسة

– بحبِك.

ردت باستحياء بأن أغلقت الخط !

خالد(٢)

الشمس ودعت النهار وسمحت لليل أن يطل، خالد يقضى وقت الأنتظار يفكر فى مستقبله. خرج المصاب من تحت العملية فى الثامنة مساءً، لكنه فى غيبوبة. وقبل أن يغادرا المستشفى دفع خالد ما كان معه من مال للمستشفى وساعده خبير التنمية بما كان يملك وقتها.

عاد كل منهما إلى مأواه واتفقا أن يعودا فى الغد.

ثلاثة أيام المصاب مازال أسيرَ الغيبوبة. خالد وبلال خبيران التنمية البشرية يجلسان فى إستراحة المشفى كعادتهم فى الأيام التى فيها، كلفا أنفسهما بمتابعة المصاب بعدما عجزت إدارة المستشفى عن التواصل مع من يخصه، المصاب لم يكن يحمل وقتها ما يستدل على هويته، لا هاتف، لا بطاقة، لا كارنيه لا إيصال نور، لا شىء.

خبير التنمية وخالد يكسران الملل بالحديث والتعرف أكثر على بعضهما

يندهش خالد: يا نهار أبيض يعنى حضرتك ممكن تعرف صفاتى من شكلى وتقدر تفسرها وتحكم علىَّ من خلالها .

الخبير: آه.

خالد: آه، (يفتح فمه) آه بجد، !

الخبير: مش مصدق أثبت لك .

خالد: اثبت ونشوف دا جميل لو حصل.

الخبير: شوف ياخالد، ملامحك بتقول إنك متضايق، أو فى مشاكل صعبة فى حياتك.

رد خالد: جميل، بس كل الناس عندها مشاكل فى حياتها.

الخبير:

– أكيد، لكن يا خالد مشاكلك أنت مزمنة، أنت بتعانى منها طول الوقت، يعنى بتطاردك، وأنت عايز تتخلص منها بس مش عارف تتخلص(ثم ابتسم وقال): أنا مش هاسألك طبعاً لأنك مصدق كلامى.

خالد بتعجب:

– أنت عارف منين أنى مصدقك؟

الخبير:

– أقول لك، أنت عارف ليه الشرطى رخم عليك فى الأسئلة انت والأستاذ التانى اللى كان معانا يوم الحادثة؟

خالد: ليه؟

الخبير: عشان أنت كنت متوتر وظهر توترك على وجهك، والأستاذ مسعد حط ايده على بقه وهو بيجاوب ودى علامة للى بيخبى الحقيقة.

يندهش فيلاحظ الخبير زيغ بصره يسارًا فيزيده دهشة قائلا:

– وانت دى الوقت رجعت للمشهد.

يصعق خالد بما يكشفه له الخبير من حقائق فى عقله.

خالد يستزيد وفي نفسه أنه سينبئه – هذا الكاهن– بمصيره في المستقبل :

– إيه تاني؟!!

الخبير:

– أنت شخص غضوب.

خالد غاضبًا :

– إيه العلامة؟

أخبره الخبير بمكنونات فى داخله جعلت خالد يستزيد

خالد:

– قول قول، أقول على طول دا انت برنس .

الخبير:

– انت يا خالد ما بتحبش القيود، وبتكره الظلم، وممكن دا اللى يكون مسبب لك المشاكل.

خالد:

– صح، أقول تانى أقول ما توقفش.

الخبير:

– كفاية بقى النهارة هاستأذنك عندى معاد ومحتاج ارجع قبل الساعة أربعة أنت قاعد ولا هتمشى؟

خالد:

– لأ هامشى .. وجودى زى عدمه, أنا سايب تلفونى لو فى جديد المستشفى هتصل علىَّ.

الخبير: طب يلا بينا

توالت الزيارات وانصهر أحمد فى تلك الأسرة، وشاركهم كل شئ حتى أصبح فيهم كالعضو فى الجسد، وزاد تفاهم أحمد ورجاء وتغلغلت أرواحهما فى أعماق حبهما وصارا يعشقان بعضهم لحد اللامعقول، وأخذ يتبادلان رسائل الشوق وكلام العشق، سطّر كل منهما أرقى الكلام وأحلاه على صفحة قلب الأخر، شهدت لحبهما قصائد الرومانسية، والحدائق والكافيهات وأماكن العشاق، والأندية والمكتبات. وكل مكان كانا يشهدانه له أثر عاطفى بلقائهما .

فى خلوة رومانسية بين مخطوبين رجاء بدلالها المتخفى فى عباءة الحياء والإلتزام وأحمد بفلسفته الرومانسية المتثرثرة فى كلامه:

رجاء:

– إنتَ حقيقة؟

أحمد بصوت هامس أقرب لصوت النائم:

– إنتِ شايفانى إيه؟

رجاء بدلال تحاول إخفاءه:

– إنتَ ممكن؟

أحمد:

انا ممكن إيه؟

رجاء كطالب الأزهرية فى الأمتحان الشفوى للقرآن عندما يسأله الشيخ فى جزء عمّ وهو غير حافظ:

– ...

– ممكن إيه؟

– مش عارفة!!

– مش عارفه إيه ؟

– توعدني؟

أحمد: أوعدك

– توعدنى بإيه؟

– أوعدك ان مش ممكن...

وتعمد الصمت، فتسأله رجاء وقد وضح الدلال فى نبرتها:

– مش ممكن آه؟

– مش ممكن استغنى عنك لو الدنيا كلها وقفت بيننا. اوعدك انى اكتب معاكى اجمل قصة حب أبدية الخلود .

رجاء: خايفة!

أحمد: الخوف قمة الحرص على الشىء، بيقولوا من خاف سلم .

رجاء تسأله في شيء من الشك:

–إنت خايف؟

أحمد:

–أنا مطمن. أنا مطمن إن ربنا خلقنا لبعض، لأنى مش متخيل واحدة غيرك فى حياتي.

رجاء: بحبك.

أحمد: لو قلت بحبك، يبقى ممكن محبكيش. فلسفة الضدد باخاف منها .

رجاء: تقول ازاى؟

أحمد: مشاعرى اللى بتقول، طاقتى اللى بتعبر، نيتى اللى بتتكلم .

رجاء: بس لازم كلام !

أحمد: الكلام مش يقدر يعبر عن مشاعري، احنا ممكن نحس بعض. وقتها ارواحنا تتقابل وتتكلم

رجاء: بس عايز أقول لك بحبك.

* * *

خالد (٣)

مستر بوش: لقد عثرنا نحن قوات العمليات الخاصة المصرية على (بن لادن) فى وكره المنزلى وكان متخفيًا تحت الملاءة، هذا بعد مقاومة عنيفة لزفير شخيره المزعج.

يفتح «خالد بن لادن» عينيه على فوهات الأسحلة الآلية مصوبة على كل جزء فى جسده الهامد، وبصره من الدهشة حديد. وجوه ملثمة لا يظهر من ملامحها شئ سوى أعين يتطاير منها الشرر. ترجم المشهد عقل خالد قبل أن تستلقف يدُ خالد وتودعه ساحة البوكس. موكب أمنى أتى لاصطحاب خالد إلى مقر ضيافتهم الأمنية المعتاد عليها خالد، عربة البوكس التى تحمل الخطير (خالد) تُقْبلها مدرعة وتدبرها مدرعة وتيمنها مدرعة وتشملها مدرعة– لانخشى دخول الحرب؛ عندنا مدرعات متوفرة بكثافة فلتخشع إذن إسرائيل – يسير الموكب إلى قسم الشرطة وخالد يتلقى من أحدهم مزيجا من اللكمات والضربات والشتائم والسباب ما بين: أمك وأبيك وكل أفراد العائلة، وأحيانا تنال الشتائم الجيران والمعارف حتى يصل ويريح خالدا فى زنزانته، الزنزانة حجرة لا تسمح لشخص واحد أن يمدد فى ساحتها، لكن من كثافة السكان الأمن المصرى يجعلها متسعة لعشرين فردا زنزانة

يحفظ خالد معالمها المظلمة عن ظهر قلب – فكم تأملها خالد، كان يتأملها كما يتأمل السائح الياباني لوحة الموناليزا، كان يفعل ذلك قطعا للوقت الذى كان يقضيه بها.

بعيدا عن مونوليزا خالد، يكسر صوت خشن أنين الزنازين المرجف، أنه صوت الحارس:

– خالد، البيه عايزك.

بدأ التحقيق الأمنى بسيل من الأسئلة المتكررة يجرف صبر خالد، على خالد أن يجيب عما لا يقل عن مائة سؤال أغلبها متكرر وبصيغة مختلفة، من أنت؟ ما هو نشاطك؟ ما طبيعة عملك؟ متى انضممت للجماعة؟ ماذا تعرف عن الجماعة؟ أبرز قيادات الجماعة؟ احك تاريخك مع الجماعة، ما أخبار الجماعة؟ أنت بتولع سيجارتك بالكبريت ولا بالولاعة؟ كلمنى وأنت شايل السماعة.

كلها أسئلة لا منطق لها..

سخيفة ..

ساذجة ..

أسئلة تنطوي على عقل مستخف أحمق

وقد يكون المسئول لا يعرف ما هذه الجماعة فضلاً عن كونه محجوز تحرى أو اعتباطيًا مع أى جماعة!! لكنه منوط بالإجابة والرضوخ

خالد بعدما يجيب عن الأسئلة حسبما يريد السائل يعود لزنزانته يتفقد معالمها المظلمة ويكمل تأمله فيها حتى يأتوه أهل الكرم والضيافة وينهالوا عليه بما فاض به أصلهم من تجريد الملابس ورشه بالماء شديد البرودة لينعشوا خالد ويجعلوا أعضاءه من الانتعاش تتصلب, وأحشاؤه تتجمد ,وأسنانه تتعارك مع بعضها، وإذا رأوه يشتكى البرودة أدفئوا جسده بجمر السجائر.. وأحيانا يجبروه على ممارسة الرياضة، فيجلسونه القرفصاء، ويوقفونه على ساق واحدة ويرحون الأخرى...، كلها أساليب تفنن فيها السجان المصرى ليجعل من المسجون والمعتقل عبرة لمن أراد أن يخالف النظام أو يفكر فى ذلك (والنظام يحترم لا شك فى هذا).

* * *

أشباه أحياء (الفقر ٣)

لم يكن يوم ٣/٧/ ٢٠١٣ سوى بداية عهد جديد يتسم بالملمات الفاجعة على هذا التعيس العابس وغيره من بقية الجمهور الغافل، تجلت ملامح هذا العهد فى صورة شبح كابوسى فى الثامنة مساءً من ذلك اليوم الفوضوى العارم بالمتناقضات حينها، عندما قطع صوت هاتفه ضجيج الفوضى الصاخب من آفة الشعب الغافل، خليط من الضوضاء الغنائى الشعبى أحيانًا والوطنى قليلا، وموسيقى الرقص كثيرا.

لم يسمع الرنة الأولى لكن صوت هاتفه تغلب على أصوات الفوضى وتسرب إلى طبلة أذنيه، كان يحمل فى يده اليسرى علم مصر وبين السبابة والوسطى فى اليمنى كانت سيجارته، لفافة مارلبورو، لايشرب هذا النوع إلا فى المناسبات السياسية والطلعات الثورية المزيفة طيلة عامين.

قبل أن يسلك يده فى جيب سرواله الجينز المهترئ؛ ليخرج الهاتف وضع علم مصر بين فخذيه ثم استخلص الهاتف من بين زحام الولاعة الغازية، والوريقات النقدية ومفتاح لا قيمة له.

بصوت يقاوم الضوضاء:

– ألو ألو، مين معايا؟

كلمات كانت تصارع ضجيج الفوضى لتصل إلى طبلة أذنه عبر قناة استيكوس التى لم تسمح إلا بمرور كلمة (أمك)مما جعله يخبئ أذنه اليسرى بكفه التى تحمل السيجارة ويضغط على هيكل الهاتف على أذنه، وضح الصوت:

– ايوة بتقول إيه؟

– ...

– تعبت أمتى؟ ومين معاها؟

– ...

– مستشفى إيه؟

تفل السيجارة طغى على شكلها

– ماعرفش عايز حاجة سلام.

لم تكن الميم خرجت من فيه المتصل حتى عبثت أنامل نبيل بقائمة أسماء هاتفه المتهالك، لتشد رقم الشيخ سعيد إلى زر الاتصال، مع ذبذبات الرنة على الشيخ سعيد كانت عضلات فخذى نبيل قد حررت علم مصر ودهسته أرضاً وهرولت مسافة أمتار بعيدا عن الفوضى ليتسى له سماع المكالمة بوضوح.

– ألو؟

يرد الصوت: السلام عليكم ورحمة الله

نبيل دون رد السلام: انا نبيل ياشيخ سعيد أمى معاك؟

– ؟

– فى التحرير وجاى إنتوا فى انو مستشفى؟

الشيخ فى نفسه: سيق نبيل إلى التحرير مع الفرقة المغيبة اللى بتشم وبتضرب حقن، ساقهم البيه (عضو برلمانى سابق ٢٠١٠) ساقهم» بالمائة جنيه» والكام برشامة كما يساق القطيع بالعصى – قاتل الله الفقر والجهل – جعلنا فى ذيل الأمم .

– احنا يانبيل راجعين بأمك البيت دى الوقت.

– سلام، سلام.

تنحى نبيل عن مهامه الوطنية التى بُعث من أجلها لميدان التحرير، وخالف ميثاق الشرف الذى قطعه مع من بعثه (البيه العضو البرلمانى) ليعود إلى أمه يطمئن عليها، و فى أول اختبار عجز وجزع، لم يراعِ حق «الورقة الخضرا» والعلبة المالبورو، وهذا حق أن يحتشد فى هَذا اليوم ليمثل جموع الشعب وينادى باسقاط (البتاع) لقد ارتكب أثماً عظيمًا، دهس علم «مصر» وهرع من ميدان التحرير إلى أمه، فر كما يفر الجند الجبان من المعركة – وحسبه لو أن جندًا فر وهرب من معركة أكتوبر، لفعلته أهون وأيسر من فعلة نبيل هذه. ويحك يا نبيل دهست العلم وهربت، ليت الهجان والشوان لا يعرفان.

استقل نبيل بعد هروبه سيارة الأجرة، وبعد دقائق نزل منها وعبر الجانب الآخر للطريق، على ناصية الشارع كان أفراد من أهالى منشاة ناصرالقليلة جدا – لكنها هى جموع الشعب هكذا وصفهم الإعلام حينها – يحتفلون بالحدث التاريخى الذى أصاب مصر فى دبرها وهى لاتشعر، نساء فى العقد الثالث والرابع ممتلئة البنية يرتدين عباءات مجسمة لو رمقتها عين راهب لأثارت غريزته وابطلت رهبنيته .وجوههن تلمع بالبودرة الحمراء والخضراء ومعظمهن عجلات يستأجرن بالساعة فى سوق الخضار، وشباب ممن يضربون البانجو صباحا ومساءً، لا تخلو جيوب سراولهم – التى تهرب من خصرهم – من حبيبات وأقراص (الترامادول والتامول)و... وكل ما يتفرع من عائلة (مول) يمسكون بأعْلام» مصر» وصور لأشخاص يرتدون الزى العسكرى تكسو الخيانة والغدر ملامح أحدهم. يرقصون صرخون ويذمرون كأن مصر فازت بكأس العالم، ضجيج جمهورى على الناصية يمتزج مع نعيق السيارات التى تسير على الأتوستراد، حالة فوضى أخرى ومعظم هؤلاء لا يفكون الخط مثل نبيل ويعتقدون أن غزة عاصمة تل أبيب وأن الأهرامات أحدهم حملها وقام ببيعها لقطر، ما علينا نعود لنبيل، دلف نبيل إلى منزلهم فرمق أمه طريحة سريرها تتنهد وحولها إمرأتان سمينتان من جيرانها فى الشارع، اقترب وانثنى لأمه:

– مالك ياما؟

نظرت وردت فى خفوت:

– مافيش كويسة يابني .

قبل أن يطرق الباب الشيخ سعيد ويدخل ومعه شنطة أدوية كيماوية ستضاف إلى الثروة العلاجية لتلك المريضة البائسة، قابله نبيل بترحيب ساذج:

– تعالى يا شيخ .

الشيخ اقترب من الطريحة سريرها وقال:

– خدى يا أم نبيل، العلاج بانتظام وخير ماتقلقيش.

دس تحت وسادتها وريقات لمحته فأردفت فى خفوت متقطع:

– لا يا شيخ مستورة والحمدلله كفاية اللى عملته.

ألقى السلام وقصد الخارج، وما أن خرج من عتبة الباب المخلّع حتى تلقفته أيديهم وألقوا به فى ساحة (البوكس)، بدأوا حملتهم منذ الساعة، يلملمون أمثال الشيخ سعيد وأشباهه، (أن تكون مطلقا لحيتك سنة ، وتحافظ على الصلاة فى جماعة وتقول جزاك الله خيرا دون شكرا، فأنت ملاقٍ مصير الشيخ سعيد).

الشيخ سعيد الرجل الذى كان يؤدى أدوارًا إجتماعية خدمية فى الحى الذى يسكن فيه؛ لذلك بدأوا به لخطورة أمره.

مشاهد الفوضى فى تلك الأيام زخرت بها «مصر» الأبية، الشيخ سعيد يعتقل لأنه يصلى ويستاك، ويؤدى خدمة اجتماعية ويقوم بحركة توعوية، وجاره سيد أبو شامة، ناشط اجتماعى أيضا لكن من نوع خاص (المزاج) حر طليق يمارس نشاطه بحرية تامة وتحت حراسة أمنية تتغافل عنه أحيانًا وتطارده أحيانًا.

ضحية قضية(٣)

لم تعـرف لهـذا اليـوم وقتـا ولم تذكـر لـه تاريـخ، أطلعـت لـه شمـس؟ لا، أأنجلـى ظلامـه؟ كلا.

نكّرتـه أن يكـون كأيـام الله. كان يـوم مـن سـليل تلـك الأيـام التـى تمخضـت فمـا أنجبـت سـوى غـدرٍ جثـم علـى واقـع شـعب إرتسـم علـى وجهـه البـؤس والضيـاع.

كجـدى هزيـل مبلـل بالمـاء ضربـت بـه صاعقـة بقـوة ١٠٠٠فولـت سـقطت مغشـيًا عليهـا عندمـا باغتهـا الناعـى فـى صـوت الهاتـف، زملاؤهـا فـى المكتبـة أسـرعوا إليهـا مفزوعـين مـن وقوعها علـى الأرض. يحاولـون إفاقتهـا، أحدهـم يرشـف علـى وجههـا رشـافات ميـاه بـاردة وأخـرى أخرجـت عطرهـا وتستنشـقها، يتحلقـون حولها وهم يتسـاءلون مـع بعضهـم مـا أصابهـا؟

– رجاء، رجاء.

تناديهـا أسـتاذة ريحانـة وهـى تضـرب علـى خدهـا بكفهـا بلطـف تحـاول إثارتهـا لتفيـق وتكـرر :

– رجاء رجاء.

تفيق رجاء بعد رشافات مائية واستنشاقات عطرية وكفكفة على خدها

ريحانة:

– مالك ياحبيبتى؟

رجاء تفيق.. وبصوت خفيض يكاد لايسمع :

– أحمد أحمد.

تناولها إحداهن كوب ماء لتشرب فلا تمد يدها لتأخذ الكوب فتسقيها ريحانة منه، تتجرع رجاء رشفة الماء تحاول إنزالها لجوفها كأن ذرات المياه حبات جمر، تغص بالماء من شدة حزنها.

بصوت مبحوح باهت:

– أحمد مات أحمد مات مات وهو بيصور فى الفض، الدموع التى حلت محل الإغماء تبلل وجنتيها الخجلتين المحمرتين من شدة البكاء.

أقعدوها على الكرسى وهم يحاولون تهدئة بكائها الطافح، وتجفيف دموعها الجارفة التى بللت خدها، تتنهد ويتسارع خفقان قلبه وكأنها عداء ركض بعد ألف متر. يستقبل زملاؤها الخبر فيصيبهم الذهول ويتلاعب أمام أعينهم شبح الفجيعة على رفيق مجلسهم، رحل أحمد دون وداع رجاء، فالرصاصة التى سكنت رأسه أثناء تغطيته أحداث الفض لم تهمله لوداع رجاء، مات الحلم الجميل لتلك الفتاة البتول، وأخذ معه ماتبقى لها من بقايا آمال رومانسية، عام واحد كان أطيب أيامهما، فيه

تعارفا، تحابا، تألفا، تفاهما، تتضاحكا، تتداعبا، تشاركا كل شئ فيه، تبادلا الحب والوداد، تسليا بتراتيل العشق وآيات الهوى، كانت أنغومة الصبّ حكايتهما، نسجا من تلك الأيام الجميلة حلما رومانسيًا رائعًا، حتى حسدتهما عليه غبطة المقادير فاختلست هذا الحلم بكابوس فاجع أليم، تكشّف لرجاء فى هيئة رصاصة غادرة أودت بحياة محبوبها البرىء. ستظل رجاء تبكى تلك الأيام ماتبقى لها من أيام فى هذه الحياة التى نزعت عنها ثياب البهجة والسرور وارتدت ثياب الظلمة والأحزان.

* * *

التدبير الخفى (وسلطة المال ١)

لم يكن جناحا عقرب الساعة قد تقابلا فى معادهما عند الواحدة بعد منتصف الليل حتى وقفت سيارة مرسيدس (همر) موديل السنة أمام أحد حانات شارع الهرم، نزل منها شاب أوشك عمره أن يبلغ الثلاثين عاما، عليه علامات الثراء الفاحش, يبدو ذلك من نوع سيارته الفارهة وملابسه الفخمة ومشيته المختالة.

طويل القامة، بشرته آدمية اللون، تمارين الجيم تظهر فى عضلاته التى كادت أن تفتك بقميصه الأسود الذى يرتديه فوق بنطال جينز بُنى اللون شبيه ببنطال الشحاذ لما به من نوافذ وثقوب – الموضة –حالق رأسه قزعا، مطلق لحيته بدعة لا سنة، ينتعل حذاء يزيد من طوله بعض السنيمترات كالبيادة، ينفث فى لفافة من نوعية باهظة الثمن.

دخل الحانة، الأضواء تلوح بألوانها المتنوعة، وصخب الرقص والسكر يقترب منه.

طقوس الترحيب تقابله من أول نزوله من السيارة على طريقة أمراء روما فى العصر القديم، إنحناء الظهر وبسط اليد وتكرار جملة «أهلاً مصطفى باشا».

أهلاً مصطفى باشا

أهلاً مصطفى باشا

ومصطفى باشا مرة يلوح بكفه.. ومرة ينظر فقط، ومرة لا شيء.. ، كلٌّ حسب منزلته ودرجته يرد له التحية مصطفى باشا.

يجلس على منضدة كانت معدة ومجهزة له قبل قدومه، زجاجات من النبيذ والوسكى كحليات مستوردة ومحلية، مائدة من المنكرات تنتظر أبا جهل.

يأتى نادل الصالة ويحنى ظهره:

– «**مصطفى باشا**» نورت المكان، فيه حاجة ناقصة؟

يرد عليه مصطفى باشا بحركة بيده كأنه يهش ذبابة بألا ينفث سيجاره ويذهب نادل الصالة ويبتعد كما يذهب ويبتعد دخان السيجارة.

مصطفى باشا ينفث أكثر فى لفافته من غضبه من تلك التى ترقص على المسرح؛ الكل جاء منحينا بالترحيب حتى صاحب المكان، وماكان منها أن رأته فلوحت بذراعها له مع ضحكة عابرة.

يدير الزجاجة فى فم الكأس وهو ينظر إليها بعبوس وغضب حتى فاض الكأس بزبد الشمبانيو، يرفع الكأس على فمه يتجرع السكر بلا اكتراث لمرارة الكأس!!

كأس وسيجارة، ورقصة بمهارة .

بق خمرى ونفس دخانى تمتزج رائحة الخمر بغبار السيجار؛ ليكونا سحابة فى الهواء المصرى، يتنفسه العامة والبسطاء من فئة الشعب الفقير التى لا تملك حق السيجارة الفرط.

تنهى نمرتها وتحلل لقمتها، وتأتى إليه بعدما غيرت البدلة التى لا تغطى سوى أجزاء بسيطة من جسدها، بدلة المهنة الفنية التى تصرف على أمها المريضة منها وتعول أخواتها الصبايا القُصّر- هكذا تدعى الغانيات فى الأفلام العربى.

شعرها يغطى ظهرها العارى معظمه، ثدياها البارزان يكفيان لإرضاع عشرة أطفال لا تستر منه إلا نهودها الغليظة، مينى مينى جيب تكسو عورتها به فوقه قطعة قماش تسمى بلوزةعيناها سوداوتان، أنفها دقيق أخذت شكلاً جميلا بعد عملية التجميل، وجنتاها ممتلئتان عليهما نصف كيلو بدرة (الميك اب) غيّر ملامحها تغيرا جذريا، تخطت الثلاثين بعام واحد تسمى البرنسيسة ودلوعة ذلكم الثرى الذى تقترب منه الآن وتقول: حبيبى واحشنى.

ينظر إليها من تحت جفنيه استنكاراً لجملتها هذه!

ترتمى بجواره وتداعبه بضحكة مائعة تنبئ عن قلة أدبها وسفالتها، تمسك بزجاجة النبيذ وتسكب رشفات منها فى جوف الكأس وتمده له وهى تقول بنبرة انعدم منها الحياء: روّق روق تصاحبها قُبلة حارة على خده، يبتسم قليلاً ويردف قائلاً:

- مش هسامحك على اللى انتِ عملتيه.

ثم يرتشف رشفة خمرية يستلذ بالقبلة الحارة.

تأخذ اللفافة الدخانية من بين أصبعيه وتوجهها إلى فيها وتشد نفسا منها وتزفره وهى تنظر له وتقول:

– غالى وسجايره غالية

تداعبه وهو مازال عابسا؛ لم يغفر لها ما أغضبه منها. يبدو أنها ارتكبت إثما عظيما، هل أحد يدرى ما فعلته هذه المومس؟

إن ذنبها أنها لم تقدم له التحية كبقية العبيد من الخدم والحشم، كان يريدها أن تأتيه منحنية الظهر

– عيب عليك يارجل إن فعلت لتدلت نهداها أمامه!!

ينفث غبار لفافته ويسألها:

– انتِ ليه مجتيش سلمتى علىَّ؟

ردت بدلال مصطنع:

– ماعلهش ماكنش ينفع، الليلة فى حد مهم موجود

ينتفض من ثملته ثائرًا:

– حد مهم، أهم منى مين دا؟ أنت نسيتِ أنا مين؟

ثم يمسك بمؤخرة رأسها ويهمس فى أذنها:

– انتِ ملكى أنا، فاهمة؟

بالدلال المصطنع تنثنى برأسها على صدره لتهدئ من غضبه:

– باشا ابن باشا البلد كلها ملكك.

يقف أمام المنضدة وبصوت غليظ هامس خارج من بنية جسدية ممتلئة صلعاء الرأس ووجه مستدير نافر، يرتدى بذلة كحلية اللون وقميص وردى خالى من رابطة العنق، بجواره اثنان (بودى جارد):

– مصطفى باشا ازى معاليك وأخبار الباشا الكبير آه؟

هذا الصوت الغليظ جعلها ترفع رأسها من على صدره حياء «الست محترمة».

يرد مصطفى باشا وهو يتأمل هيئة صاحب الصوت:

– بخير، تمام أهلا بحضرتك.

– أنا سامح بيه، الباشا الكبير يعرفنى بلغه سلامى.

– يوصل يا سامح بيه، اتفضل كاس.

– لا شكرا مرة تانى سلم لى على الباشا، قالها وهو يمرر خطواته للخارج.

نظر إليها متسائلا:

– مين دا؟ انتِ تعرفيه؟

هربت عيناها إلى قنينة الوسكى كأنها تذكرت أمرا جللا، ثم عادت فى صفحة وجهه ونفثت سيجارها وردت:

– دا ياسيدى اللى بيراقب النشاط، من جهة أمنية

– سيبك من الحوارات دىَّ.

قالها وهو يقف ويمسك بكف يدها ليسحبها للوقوف، يرتفع بؤبؤ عينيها إليه وقد قامت نصف قومة وتسأله:

– فين هنروح فين؟

يكمل سحبتها وشدها ويجيبها:

– لشقة المعادى .

يتمشى بها للخارج وذراعه الأيمن يستقبل كتفها ملتفا بظهرها العارى وزجاجة الوسكى فى كف يده اليسرى، قنينة وغانية، إنه الثراء الفاحش فى يد من نسى «الباقية» .

يدير محرك السيارة الهمر مؤذناً لضجيج الموسيقى أن يتسرب من نافذة الزجاج الأمامى للسيارة الضخمة إلى نسيم القاهرة الساهر فيمتزج مع أضواء الشوارع الباهتة وأصوات السيارات الزاعقة؛ لترتسم على صورة رصيف الدائرى نغمة النيل الصاخبة.

تقطع صوت الموسيقى عن أذنيه وتنثنى برأسها على كتفه و تهمس له:

– مش هتجيب لى هدية رأس السنة؟

كانت بوادر عام ٢٠١٥ قد أقبلت ومراسى النيل تستعد للاحتفال بعيد الميلاد , يميل برأسه كيلا لتلامس لمته فروة شعرها الموج على صدرها البارز وكتفها العارى:

– من عينىَّ ياحبيبتي، بس عينى راسك عشان الطريق.

مرت السيارة من أمام المحكمة الدستورية قبل أن تقف إطارتها

تحت برج من عشرة طوابق يبدو ديكور وجهته أن معمريه من الطبقة رفيعة المستوى المميزة فى بلدنا مصر الحبيبة- المحروسة بأولادها.. العالية بأبراجها وبنياتها الضخمة. أمن هذه الصرح (البرج) على الأقل خريج لغات وترجمة.

يولج مصطفى الكارت السحرى فى فرجة المصعد ليرتفع بهما إلى الطابق الثامن، شقة مصطفى باشا الثرى الفاحش على يمين المصعد بعد أمتار من الممر، باب الشقة أسود اللون هيكله من خشب إيطالى الصنع مصرى التركيب، سعر الباب كفيل بأعالة **نبيل الفقير وأمه المريضة** حتى ينقضى نحبهما. الشقة عبارة عن فردوس من الأثاث الخشبى والديكورات الهندسية والبهارات المعمارية.

يدخلان الشقة ويصطحبها إلى غرفة النوم ليكملا السهرة بغنوة الشهوة ولحن السكر، وعزف اللذة.

* * *

خالد (٤)

يستيقظ خالد من نومته مع دنو الغسق يستند على جدران الصالة يقصد الحمام يتخبط كما السكران – النوم فى تلك الساعة مؤرق– دلف الحمام الذى يكسو جدرانه السيراميك المهشش، ينزع ملابسه وسط حالة من السكر النومي، بأناملة لف رأسا معدنيا يسارا فتهطل ذرات المياه من أعلى منصبة من فوهة الدش على فروة رأسه وتتوزع على بقية الأعضاء سالكة طريقها إلى بالوعة الحمام، يترك أثار الضرب والتعذيب والأرق تنزل من على جسده المؤرق مع قطرات المياه الباردة جسده بدأ يشعر بالانتعاش، أعاد لف الرأس المعدنى قبل أن يمسك بالمنشفة ويمسح ما تبقى على جسمه من قطرات متناثرة كالندى على أوراق التوت.

ارتدى جلبابا بنصف كم ,ثم توضأ، بسط السجادة وانتوى الصلاة «الله أكبر نويت أصلى الصلاة الفائتة « ثم صلى صلاة يومين فى آن واحد، ختم صلواته بدعوة ثابتة على لسانه مذ عشرة أعوام لم ينقطع عنها سوى عام واحد ثم عاد لها بعد ٣/٧وأضاف لها بعض الإضافات الدعويَّة المواكبة للأحداث السياسية حينها.

وميض على شاشة هاتفه (البطارية ممتلئة يرجى نزع الشاحن من المكبس) ٤ مكالمات لم يرد عليها ثم رسالة قد بلغت الحد الأدنى للمكالمات التى لم تصلك، عبث بالهاتف لينتهى عبثه بجارى الاتصال بمحمود إخوان، يقطع صوتَ الكول تون صوتُ محمود: السلام عليكم ورحمة الله

– وعليكم السلام ياشيخ حودة ازيك.

بصوت فخيم يرد:

– بخير أنت أخبارك إيه؟ ولاد (اليـ...) سابوك أمتى؟

– النهاردة الضهر.

حمدلله على السلامة يا بطل، ماشوفتش حُذيفة وابراهيم؟

– لا، ليه؟

أخدوهم ولاد(المـ...) برضه فى نفس الحملة بس لسة ماجوش، الله ينتقم منهم.

– ومنكم.

– الله يسامحك، على العموم خد بالك من نفسك الأيام الجاية عشان فى جديد.

– ولله ما شايفلها جديد ولا شايفلها أي حاجة.. ويبقى الوضع كم هو عليه !

– إيه انت يئست يا أخ، احنا مكملين للآخر.

– وأنا جبت آخر! ! وبلاش والنبى كلمة أخ؛ دى اللى موديانى فى داهية ياعم دول بيحسبونى منكم.

– ما الأحرار دى الوقت بقم كلهم إخوة.

– الله يسامحكم انتم السبب فى اللى احنا فيه .. ركبتوهم علينا بغباءكم، الله يخيبكم عاملين فيها أنتم اللى فاهمين وغيركم بقر وأنتم عايزين تسوقهم لطريقكم .

غضب الشيخ محمود من سخط خالد على جماعته واتهامهم بالتقصير أو الغباء السياسي فرد:

– احنا ما لقيناش الناس اللى ممكن تكون قد المسؤلية قلنا نشلها أحنا

فعقب خالد بسخرية غاضبة:

– طيب وشلتم النيلة.. وشيلتم الشعب معاكم .. وضحك ساخرًا

– خد بس بالك من نفسك سلام، سلام.

لم يترك الهاتف وأعطاه إشارة بث الاشارات، جارى الاتصال

نجلاء ممرضة

المستخدم مشغول ..

وضع الهاتف على الكوميدينو وقصد المطبخ:

– فين الشاى فين الشاى؟ قاتلهم الله! على رأى الشيخ محمود؛ المطبخ ماسلمش من عبثهم الأمني، ثم أخذ يعيد ترتيب المطبخ وينقذه مما أصابه، أوقد شعلة (البوتوجاز) تحت غلاية الشاى

,سمع صوت هاتف يناديه فوضع الكوب بعدما رشف منه رشفة لم تبلغ حلقومه.

– ألو مين معايا؟

– أستاذ خالد؟

– نعم، مين حضرتك؟

– أنا إبراهيم « أخو» (سالم) اللى أنت وديته المستشفى وعايز أقابل حضرتك..

أزكت جملة الأخير نبضات قلب خالد وانتابه شعور متناقض، فى وهلة شعر بالخوف والراحة معاً «عرف أنى اللى صدمته وهيعمل لى قلق، لا ممكن هيشكرنى ويرحمنى من أخوه بقى لا مش عارف».

هذا حواره مع نفسه قبل أن يكرر المتصل:

– ايوة يا أستاذ انت معايا، سامعنى الو،

– أيوة مع حضرتك الساعة تلاتة بعد الضهر هاقابلك فى المستشفى.

المتصل:

– ليه فى المستشفى؟

– بالمرة نشوف أخوك؟ أخوك أنت قلت اسمه إيه؟

– سالم.

– بالمرة نشوف سالم.

– لأ، اصل احنا روحناه

«روحناه» هذا الكلمة التى روّحت عن خالد وتنفس الصعداء « روحنا كله يرقص ونجحنا كله يرقص « هكذا طربت مشاعره حالما سمع تلك الكلمات وهذا ما كان يمليه عليه شعور خالد.

– خلاص شرفنى فى شقتى خد العنوان.

انتهت المكالمة.

* * *

التدبير الخفى و (سلطة المال٣)

كان كما ولدته أمه فى غرفة أحد فنادق « هوتل روتششايلد « تل أفيف يتجرع قدحه وهو يقرأ تسلية للوقت مجلة (معاريف) حين زعق هاتفه بتسلم الأيادى:

– ألو.

– أهلا سامح بيه، أنت عامل إيه؟

– بخير ياباشا، إزى معاليك؟

– تمام.

– أخبار ولاد العم معاك إيه؟ عرفت أنك عندهم من امبارح، إيه ياباشا زيارة دبلوماسية والا مصلحة؟

يرد: أنت عارف الناس دى ملهمش غير فى المصالح.

يسأل: ايه المرة ديه؟

يرد: شوية عقاقير عشان الشباب وانت عارف شبابنا بقى.

يعقب الكلام ضحكة من الطرفين:

– على العموم ياباشا كان فيه موضوع عايز أكلمك فيه ضرورى.

– خير ياسامح: ايه الموضوع؟

– المينا بتاع حضرتك اللى مصطفى ابن سعادتك .

– ممم .

– بيديرها، طلع منها من كام شهر مركب وعليها شباب من اللى بيهاجروا اللى مهووسين بحتة السفر لأروبا، والأيام الجاى أنت عارف لا تسمح باى غلطة، الانتخابات داخلة ومش عايزين شوشرة أنت عارف الجزيرة والأناضول الأيام دىَّ مسلطين نفسهم على الحاجات دىَّ قصص اللاجئين السورين والأفلام الوثائقية، لو رحلة طلعت من حدودنا مش هنسلم منهم.

– ممم

– فياريت ياباشا الأمر دا لا يتكرر، جات لنا أخبار أن فى المينا شخص اسمه (شكرى) هو اللى بيباشرها، الظاهر أن ابن حضرتك مشغول، فلو الأيام الجاية محتاج تتفرغ لمصالحك وشَركاتك مافيش مانع أفضل ما يحصل اى حاجة تسبب للجميع قلق، دى رسالة، مش كلامى معاليك واظن الرسالة وصلت؟

– OK، OK وصلت.

بصوت هذّبه الغّل والحنق:

– آه فى موضوع تانى.

– ..

– من كام يوم كنت فى شارع الهرم ولقيت مصطفى (والسنيورة) كانت لافة حوليه زى الأفعى يا باشا البنت دى كارتها اتحرق مهمتها انتهت لخص وانهى.

يرد وسيوف الغيظ تغزو جنباته:

– تمام تمام، يومين وأنهى كل حاجة، سلام .

رد المتصل سلامه بإغلاق الخط، لم يجد سوى هذا الرد على وصايا المتصل بعدما رأى حجمه السياسى والعمرى تضاءل وانكمش أمامه بسبب طيش ابنه وسوء مايفعله، قد سبب له ما يحرجه مع حاشية الملك الذين يتصيدون لبعضهم الزلات والأخطاء لينهالوا على صاحبها كما الذئاب تنقض على الفريسة، لا مكان للعاطفة، المصلحة أولًا.

هذه المكالمة أخبرته أن يقطع زيارته لأبناء العم ويحجز أقرب طائرة للعودة لأرض الوطن ,سالما .. غانما بالعقاقير والغضب محملا.

أشباه أحياء (الفقر ٥)

يقعد كعادته – التى فترتها بطالته – على طرف الكنبة التى يعتليها شباك الغرفة، الشباك الذى يطل على الشارع، تلك الكنبة التى يستقبل عليها زائريه وضيوفه، النادر وجودهم – فمن سيزور هذا المنعدم الفقير – ينام على الكنبة ليلته ويجلس عليها نهاره، يستند بخده الأيسر على راحة كفه، عيناه تيغ في خياله فهو ي يرسم لنفسه حياة أخرى غير التى تأسره فى حجرتين يعانى الفاقة وسغب العيش بين جدرانهما.

– نبيل.

– أيوة ياما.

– مالك يابني، سرحان فى إيه؟

– لا مفيش.

– أنت من ساعة ماجيت من عند المعلم (جاويش) وانت قاعد مع نفسك وسرحان فى حاجة؟

ينظر إلى أمه، يتنهد ويرد:

– لا ياما قلت لك مافيش.

– يـا بـني، أنـا حاسـة بيـك، قلبـى ياضنايـا، فضفـض لى إيـه اللـى جـواك مزعلك!

يرد بضجر من فضول أمه بكثرة السؤال:

– ياما سبينى لحالي، أنا كويس!!

قالهـا وهـو يقـوم مـن جلسـته ويقـف ويربـع مرفقيـه علـى جلسـة الشـباك، يطـل بناظريـه اللـى سـاحة الشـارع، الشـارع الـذى لم يجـف ثـراءه مـن فيضانـات الصـرف الصحـي، الحـال لا تسـر. يحـدّث نبيـل الشـارع فـى سـريرته: أمتـى بقـى أشـوفك لآخـر مـرة وانـا شـايل الشـنطة وماشـى؟

يتأمـل نبيـل الوجـوه التـى تسـير فـى الشـارع علـه يـرى أحـدًا ممـن يقصـده بسـيجارة، تهـرب عينـاه إلى السـماء يبـدو أنـه يئـس أن يسـتلقف مـن يقصـده بسـيجارة، ينـزل عينيـه مـن صفحـة السـماء ذلـك الصـوت الخشـن:

– نبيل، يلا.

– إيه أستاذ (وليد) ازيك؟

– إيه ياد مالك؟

– ما فى.

يقطع صوت نبيل:

– ازيك ياأم نبيل، عاملة إيه؟

– الحمدلله، ازيك أنت وازى العيال؟

– كويسين .

همس لنبيل:

– حصلنى على القهوة عايزك فى موضوع هاكلمك فيه.

– هات سيجارة طيب.

– على القهوة .

قالها بعدما سار خطوتين.

– ازى مرات أخوك؟ ولدت ولا لسه؟

نبيل وهو يتجه للباب:

– مشى ياما ماسمعكيش.

– كنت عايزة أعرف مرات أخوه عملت إيه؟ كانت تعبانة وماقدرتش اروح أشوفها.

نبيل أثناء فتح الباب متيمنًا المقهى ليعرف ما الخطب من صاحبه:

– هسألهولك عن مرات أخوه وابقى أقولك .. أنا شوية وراجع , وخرج من حجرتيهما مثل الفأر الذي ينبثق من جحره.

على ناصية الشارع قرب الأتوستراد ثمة مقهى يعج بجاليسه أصحاب الجلاجيب الفلاحى والشوارب القاتمة والخواتيم الفضية وغير الفضية، تلك هى الملامح التى يعرفون بها أينما ذهبوا، أهل الصعيد (المعلمين)، وهناك الشباب الذين ليس لهم نشاط سوى لعب الدومينو واحتساء المشاريب على حساب من تقفل عليه

أدوار الدومينو، وأحيانا تجد بين هؤلاء الجالسين من هم تخرجوا من الكليات وينتظرون التعيين الحكومى منذ أعوام حتى نسوا من أى الكليات هم تخرجوا. .!! قهوة المصريين شاى بحليب، وسحلب وأحجار تفاح، وماشة وكوباية زجاج، وأحجار دومينو على كراسى خشب أو حتى بلاستك، وشاشة عرض لزوم الماتش دورى الأبطال حيث الإذاعة الحصرية لقناة الجزيرة العربية، واحتشاد المصريين على المقاهى فى جموع بالآلاف.

كان يجلس فى ركن أول المقهى حين تعقبه نبيل، يرتدى قميصا كروهات فى العقد الأربعين، وسيم بعض الشيء لأنه يخلو وجهه من علامات الجودة لتلك المنطقة (البشلات) أملس الوجه من الشارب والذقن، دبلومة صنايع؛ لذلك ينادونه الأستاذ (وليد).

يطرقع بكفيها فيأتى نادل القهوة، ذلك الشاب الثلاثينى الأقرت:

– أؤمر يا أستاذ (وليد).

يأمر الأستاذ وليد.

– أتنين شاى واحد ناقص سكر وحجرين تفاح، أزى والدتك يا نبيل؟

– أهو كل يوم المرض بيتعبها أكتر وأنا مش عارف اعمل لها إيه!

–هى لسه نوبة السكر بتجى لها؟

– بتجى لها بس مش على طول

– علـى فكـرة كلمـت لـك (بطـرس) اللـى شـغال فـى التامينـات الصحيـة عشـان يخلصلهـا الـورق بسـرعة ولاد الرخمـة بيققـوا الـورق عشـان ختـم ملـوش لازمـة.

– هو عمل إيه لحد دى الوقت ؟

– أهو بعته الشؤون ولما يجى تاخد أمك وتروح تكشف.

يأتـى نـادل القهـوة بصينيـة صدئـة، عليهـا القدحـان الخمسـين وكـوب أكـبر بـه ميـاه يـكاد اللـون الأصفـر يظهـر بهـا فضـلاً عـن الطعـم والرائحـة، وضـع الشـاى والميـاه علـى المنضـدة الحديـد وذهـب ليأتـى بأحجـار التفـاح.

أمسـك بالمعلقـة التـى جـار عليهـا الدهـر فتعرجـت بعـد اسـتقامتها واسـود لونهـا، بحركـة دورانيـة فـى جـوف الكـوب يربـك سـكون حبيبـات السـكر فـى القـاع لتـذوب فـى الروابـط الكميائيـة بـين ذرات الميـاه، بعدهـا يصطـاد الفقاعـات مـن علـى وجـه الكوبايـة بغرفـة المعلقـة همـس لنبيـل قائـلاً:

– الموضوع اللى عايزك فيه محتاجك تركز وأنا باكلمك دا مستقبلك.

أتـى النـادل ووضـع بجـوار كل مـن نبيـل والأسـتاذ وليـد مدخنـة الشيشـة (النارجيلـة) ورحـل .

شد الأستاذ وليد نفسا ونفثه فى الهواء وأردف:

– أنت معاك فلوس يا نبيل؟

نبيـل مـازال يقلـب حبيبـات السـكر لتـذوب فـى محيـط الكـوب حركـة الذوبـات تطلـب مـن نبيـل حركـة دروانيـة أكثـر مـن جليسـه

لكوبه لأن نبيل يشرب زيادة سكر، رفع الكوباية الخمسين إلى فيه وارتشف يتأكد من نسبة زيادة السكر بها ثم وضعها مكانها وهو يرد:

– ليه يا أستاذ وليد هى التأمينات عايزة فلوس عشان الورق؟

– لأ يا نبيل. دا موضوع تانى خالص سيبك من التأمينات خالص هيخلص بإذن المولى.

– أمال إيه؟

– انثنى إليه بجانب رأسه حتى كاد أن يلامس لمته، وقال:

– سفر!

ثم بلغة الناصح الأمين:

– أنا عارف ان الشغل معاك متأزم ويوم تشتغل وميه لأ، وأنت مالكش فى المعمار صحتك مش مسعداك، والحساسية يتزيد عليك من المونة اللى بتشتغل فيها، ثم ارتشف بق شاى تاركا عقل نبيل يذوب فى ترجمة الكلمات.

سفر سفر، هذه الكلمة التى توقف عندها عقل نبيل من بين تلك الكلمات المسرودة من جليسه كأن نبيل لم يسمع عن السين والأف والراء مجتمين قبل سابق.

هذه الكلمة جاءت مواكبة لأفكار تحولت لمشاعر تنتاب نبيل منذ أيام.

كم فكر نبيل فى تلك الأيام فى حاله المتعسر ومرض أمه المنفر؟

راودته فكرة البحث عن حل يخلّصه من قبضة الفقر وينقذه من أنياب الضيق.

– أنت بتتكلم بجد يا أستاذ وليد؟

ضغط بالماشة على الجمر ليزيد من تفاعل المعسل مع شهيقه، شد نفسا ونفخه من فتحتى خياشيمه غباراً أسود كثيف تعبقه نبيل بأنف معتادة على عبق المقهى الذكى.

– عيب يا نبيل، فى واحد اتعرفت عليه فى الشغل بيسفر الشباب من اسكندرية فى المركب. شدّ نفس ..: سفّر ناس كتير، وانا عارف ناس منهم سفروا ورجعوا معاهم فلوس وعملوا بيوت واتجوزوا وبقوا أغنى من المتوظفين فى البترول وحالهم بقى مترستأ عالأخر

نبيل الذى كان يترقب أحدهم ليصطاد منه سيجارة – يضبط بها (الطاسة) تغافل عن حجر التفاح حتى انطفأ .. ونسى الشاى حتى برد..، يستمع وكله أذن مصغية لكلمات بدت كأمل يجالسهما.

– دا اللى أنا مستنيه والله يا أستاذ وليد حاجة زى دى ممكن.. ويهز رأسه أفقيا ويتنهد:

– دى فرصة يانبيل ماتتعوضش دا انا فى يوم كنت قاعد مع واحد من اللى ابن عمه سافر قال لى على حاجاااات خد شهيق وزفير ثم غبار أسود يتعقبه رشفة شاى حاجات... ، قال لى: إن

ابـن عمـه سـافر إيطاليـا ورجـع بعـد تلـت سـنين اشـترى القيراطـين الأرض اللـى قـدام بيتهـم ورمـى الأسـاس وطلّـع بسـم الله ماشـاء دوريـن تشـطيب م الآخـر يامعلـم، وسـترّ اخواتـه البنـات وطلّـع أمـه الحـج وأمـه قالـت لـه:

– يابنى أقعد وأجوز.

قال لها:

– هسافر.

أشار بيده لنبيل

– أصلـه شـاف هنـاك اللحـم الأحمـر .. ابـن عمـو قـال لى انـه مظبـط مـع بـت إيطاليـة ثـم بنـبرة تحسـر ونـدم : جـواز إيـه دول اللـى هنـا! فـرز عاشـر.نبيل بلـع الكلمـات برشـفة شـاى وهـو يحـدق فـى وجـه الأسـتاذ وليـد ,يركـز فـى الـكلام كطالـب ثانويـة فـى مراجعـة ليلـة امتحـان الفيزيـاء.

– غيّر الحجر ياكبير (قالها للنادل).

– تؤمر يا أستاذ وليد.

– طب السفرية مش محتاجة ورق وكلام من دا يا أستاذ؟

– ولا أى حاجـة مـن دا، محتاجـة فلـوس بـس وتوكل بـروح قتالية.

هرش نبيل فى ذقنه الأيسر وضيق عينه وقال:

– كام كدا؟

– ماعرفش والله يا نبيل، بس شوف أنت لو ممكن تس...، شهق نفسا من الشيشة وضغط بالماشة على الجمرة ليفعل الحجر الجديد، افر، لو ممكن تسافر؟ هاسألك عن المبلغ، بس أمك يا نبيل عيانة مين هياخد باله منها لو حصل نصيب وسافرت؟

يشير بيده تجاه رأسه كأنه يهش ذبابة يعنى أنا قاعد معاها عملت إيه يعنى؟

– دا انا عالة عليها لا شغلة ولا مشغلة، شوف لى بس الراجل دا بس عشان خاطرى وحياة بنتك.

قالها بنبرة ترجى واستعطاف .

– ماشى يا نبيل بس موضوع الفلوس هتصرف فيه ازاى دا برضه على الأقل مش ممكن يقلوا عن عشر تلاف جنيه على ماباسمع .

– عـ. شرر تلااف جنيه كتير! !

– انا مش متأكد بس باسمع، وعلى العموم ادينى هاشوف الرجل وأسأله.

طرقعات باليد يأتى .. نادل القهوة فيدس فى يده ورقة نقدية ويدعه يرحل

سلطة المال (٤)

«أهلا بكم فى مطار القاهرة الدولى»

موكب السيارات كان ينتظره، وفى طريقه إلى مثواه، قبل أن يدار محرك السيارة هاتف ابنه مصطفى.

موجات الهاتف توقفه قبل أن ينزع عن نفسه ما يحل إزارًا، كان على استعداد لإجراء عملية من عملياته المدنسة، رمق الهاتف وقال بامتعاض:

– مش وقتك خالص يا بابا.

بنبرة متخشنة من حمية الغضب:

– تعال بسرعة حالا مدينتى عايزك ضرورى مسافة الطريق تكون عندى.

– ليه فيه حاجة؟

– قلت لك مسافة الطريق تكون عندى، سلام .

نفخ مصطفى باشا بغضب وألقى بهاتفه.. وأخذ يرتدى ما نزعه من سترته وهمس لأحداهن ما فحواه:

– رايح مشوار ضرورى

ستظلين محافظة على بكارتك حتى نلتقى.

نجت تلك الزجاجة من الفض مؤقتا، سيارته الهمر موديل السنة لم تستغرق كثيرا لتوصله إلى مدينتى «مدينة عالمية على أرض مصرية « مدينة يمتلكها شخص ومعه شركاؤه بمال مصر، هذه المدينة التى بناها عمال مصر أمثال نبيل والمَعلم فريد وأولئك الذين انقلبت بهم السيارة على الدائرى وغيرهم ممن يبنون.. ويشيدون .. ولا يحظون بشيء مما يبنون أو يشيدون، يحملون كتل اللبنات والملاط على عاتقهم وكلهم يتساقطون ضحايا وصرعى عمل وأجرهم بخس جنيهات معدودات.

أمام فيلا ذات ترقيم «٤٤» كان يرتردى قميصا أزرق ورابط عنق نفس اللون وبنطالون أسود. ما أن رآه قادما قدّم التحية على غرار التحية العسكرية، هذا الشاب الأمنى لم ينحنِ كأمثالهم لمصطفى باشا، فهل سيغضب منه؟

لم يغضب منه ولم يعبأ حتى بوجوده وهرع إلى داخل جنة أبيه وفردوس نزله (الفيلا)، فى الداخل كان ينتظره وسط الخدم والحشم :

– مصطفى اللى أنت بتعمله دا مش كويس هيسبب لى قلق.

سأله بتأفف :

– إيه اللى حصل.

– المينا أنت سايبها لشكرى يباشرها وشكرى بيطلع مراكب للسفر ودا مش مطلوب الأيام دى، ركز يا ابنى معايا شوية، وبالنسبة للبنت اللى لافة حواليك زى الأفعى وهتطولك بسمها، دى خلاص كرّتها اتحرق, وريحتها فاحت . همّ مصطفى أن يتكلم فعاعجله أبوه في غضب :

– أنت ما بتدخلش على النت، العيال ولاد الحرام بتوع السوشيال والفيس بوك بشيرولها فديوهاتها مع الباشوات وأنا مش هاسمح لحد يمسك علىَّ حاجة احنا يا حبيبى فى معسكر ما بيرحمش كله بتاع مصلحته ومستنى يدوس على التانى ويمسك عليه غلطة، فهمت ولا محتاج خبطة عشان تصحى للى انت بتعمله، قالها وعيناها تتوعد بالحذر.

لم ينبس ببنت شفه. سمع منه ما لقنه إياه, وانصرف فى حالة من الضجر والتأفف بسبب ما شعر به من تكبيل لأفعاله وحرية تصرفاته.

أشباه الأحياء (الفقر٦)

بعد خمسة أيام من حجرى التفاح والكوباية الخمسين، تذكر أمر نبيل فسلك يده فى حيب الجبردين فأخرج هاتفه وأرسل موجات هاتفية لأحدهم

يومض هاتفه فيرد:

– ألو.

– أزيك يا أستاذ بشير .

– أهلاً يا أستاذ وليد.

أستاذ وليد بشيء من المجاملة:

– أخبارك إيه وبنتك عاملة إيه؟

– بخير،

باقول لك.

– قول.. أتفضل .

– موضوع السفر اللى كنتم بتكلموا فيه، عندى واد فى الشارع غلبان وحالته شرش لو تكسب فيه ثواب وتشوفوا له سفرية دا أمه عيانة ومحتاجة بنك عشان علاجها .

يضحك بأريحية جعلت الأستاذ (وليد) ينتابه الشك ورد:

– يا أستاذ وليد مش أنا اللى باسفر! !

– أه، أمال إيه الكلام اللى سمعته وأحنا قاعدين؟!

– بص أنا هديك المفيد أحسن، هديك رقم اتصل عليه، لو يعنى الواد يهمك أتص...

قاطعه :

– ياعم بثوابه عشان أمه المريضة وهو وحيدها .

– ازاى وحيدها وهيسبها؟! على العموم اتصل على الرقم قول له إنك من طرف خالد وقول له الكلمة دىَّ (الشنطة جاهزة) .

– الشنطة جاهزة دى كلمة سر.

– آه ياعم الناس بادارى على شغلها .

– هو مين طيب اللى هتدينى رقمه؟

– دا السمسار اللى بيجمع الناس وبياخد الفلوس ويشحنهم ياعم فى البحر وهما ونصيبهم.

– هات الرقم وخلاص.

– أكتب، وأملى عليه رقم جوّال من يريد (الشنطة جاهزة!)

– ... آه، آه، آه اسمه إيه؟

– ناجى.

– تمام..

ماتنساش تقول من طرف ناجي و(الشنطة جاهزة)

– سلام .

كأن رصيده فى الموبايل ليس إلا هذه الساعة فأردف المكالمة بمكالمة لناجى الذى سيخبره بأمر سفر نبيل، ثوانى وسمع الصوت يرد ,فبادر سائلًا :

– معايا أستاذ ناجى ؟

أجاب الأخير:

– آه، مين حضرتك؟

– أنا من طرف ناجي, فيه شاب عايز يسافر والشنطة جاهزة.

– لو جاهز بشنطته.. الأسبوع الجاى يسافر؟

– كنا عايزين نعرف بس الأول التكاليف؟

– هو بلغك ما عرفكش التكاليف ؟

فرد بالنفي :

– ماسألتوش.

– طب بص، جهز عشرين الف وكلمنى.

– سلام.

– سلام.

بعد انتهاء المكالمة راح الأستاذ وليد يتحدث مع نفسه كيف لهذا المعدوم أن يجمع عشرين ألف جنيه : «دا الشارع اللى عايش فيه كله على بعضه لو نفضوه مش هيجمع عشرين جنيه» فى الليل قصد بيت نبيل ليخبره بالأمر أو بالأحرى , يعجزه عن الأمر.

– طب والعمل يا أستاذ وليد، عشرين الف – يانهاار أسود– ليه أنا هسافر فى طيارة هليوكوبتر؟!

– مش عارف والله يا نبيل، أنا قلت الموضوع أخره عشر تلاف فى الحدود ديه، بس بينى وبينك لو سافرت سيبك من العشرين ألف، هتترستق معاك ع الآخر، ثم أخذ يسرد له قصص الذين هاجروا إلى الفردوس الأروبى وعادوا محملين بالخيرات لأهليهم وذويهم، قصص سمع هو بها – فى مصر الكل يحكى – يسمع نبيل من الأستاذ وليد قصة محمود الذى هاجر وعاد واشترى ميكروباص واشتغل على الخط .. وكريم الذى بنى عمارة بعدما جمع مالا وفيرا من العمل فى إيطاليا وغيرهم ممن بنوا وشيدوا واشتروا وتزوجوا .. قصص سندها (النقل)،حدثني فلان عن فلان وعن.. وعن.. وعن وعن لم يدركوا أبطال قصصهم، ولا أحد يعرفهم!!.

نبيل يفتح فاه أثناء سرد الأستاذ وليد – مثل الطالب حين أول درس الفيزياء – اقتنع أكثر بالسفر وتلاشت عنده معوقات العشرين ألف جنيه ورآهم كأنهم ألفا جنيه وسيحاول ويجمعهم .وما أبسطه نبيل ؛معضلة النقود تلاشت عنده وانحلت عقدتها

وأصبح من اليسير أن يسافر, أن يصبح ممن يشيدون ويشترون , أو يتزوجون .. أن يصير – يومًا ما– من تلك الأبطال التي يحدث عنها فلان عن فلان ! !

بعدما فرغ جليسه من قصص الأساطير ,سأله نبيل وكله أمل ورجاء:

– أنت شايف يا أستاذ وليد ممكن أجمّع الفلوس ازاي؟ انصحنى يا صاحبي،

الأستاذ وليد تأخذه عظمة الناصح وخيلاء المسئول ويمد كتفه، لقد طُلب منه النصيحة ,فيرد:

– بص يا بنى أنت تحاول تمسك إيدك فى المصاريف شوية ودوس فى الشغل يانبيل، تعالى على صحتك وموت نفسك فى الشغل فى المعمار.

نصحية مقبولة نسبياً، يموت نفسه فى الشعل ممكن – لكن كيف أيها الناصح من التقشف، كيف يمسك يده فى المصاريف وهو فى الأصل لا يصرف شيئا لأنه لايملك ما يصرفه ؟!

ظل نبيل يفكر ما هذا الشغل الذى سيموت فيه نفسه حتى يجمع العشرين ألف جنيه؟ ما الحلول المتاحة وغير المتاحة؟ نبيل ليس طيارا ولسانه لا ينطق بسبع لغات حتى يعمل بالنهار ويرتزق من الترجمة بالليل، نبيل مجرد عامل فى المعمار ماهيته لا تتجاوز الجنيهات المعدودة فضلا عن لياقته البدنية التى لا تساعده على الاستمرار فى العمل المعمارى الشاق.

بعدما أرهق ذهنه وكادت رأسه تنفجر صداعا ليس من التفكير إنما الأريفة محتاج سيجارة يظبط بيها (الجمجمة) أقنع نبيل نفسه أن يطلع شغل المبيت فى المعمار، هذا هو الحل، المعمار هو الحل , كل شقاء وكله ذل , لكنه بات لنبيل « الحل « اليومية فى المبيت غالية، ويضمن من نفسه الاستمرارية.

بعد الركون لذلك «الحل» , الحل الاضطرارى بدأ نبيل يبحث عمن يأخذه معه شغل المبيت، أجرى اتصلاته القليلة واستعان بعلاقاته المحدودة، حتى وجد المعلم فريد الذى كان يعمل معه سابقا سيذهب للإسكندرية بالمدة اتفقا ونبيل على السفر للإسكندرية معا اتفقا على المدة خمسة عشر يوما والماهية ثمانون جنيها، شاملة مصاريف الطعام والشراب ز

والإقامة ؟ سأل نبيل المعلم فريد ,فأجاب الأخير في يسر :

– بعد الفراغ من العمل بيتشوف ركن تنام فيه يا معلم

– أمين يا مَعلِّم.

رد نبيل (المعلم)

– أمين يا معلم.

– طالعين بكرة، هنمشى الفجر .

– ماشى يامعلم فريد.

خالد (٤)

فـى الميعـاد تقابـلا وتعارفـا، وتحـاورا، وكل منهمـا قـال للآخـر: أنـا سـعيد بمعرفتـك.

خالد:

– مافيـش داعـى والله اللـى حضرتـك بتعملـه دا. احنـا ماعملنـاش غـير الواجـب وعينـه لم تـزغ عـن الكيـس الـذى يضـع فيـه أخـو المصـاب النقـود التـى يردهـا لخالـد.

ابراهيم أخو المصاب شاكرًا خالد :

– لأ، دا حقك وكـتر ألـف خـيرك – والله أنـا لـو مـش محـروج مـن حضرتـك وخايـف تفهمنـى غلـط كنـت زوتهم.

خالـد لسـان سـره يقـول: ياعـم مـش هافهمـك غلـط دا أخـوك عطلنـى بـه وضيّـع علـىَّ السـفرية. ولسـان جهرهـه يقـول:

– خلى عنك خالص،

أخو المصاب وهو يهم بالرحيل :

– أستأذنك أنا بقى.

وقام يبسط يده لمصافحة خالد، خالد يصافحه ويتجه نحو باب الشقة ويقول:

– شرفتنى الشوية دول رغم أنا ماقعدتش وماشربتش شايك.

– سلاموا علكيم ,وهو يدير ظهره لخالد:

– آه يبقى بلغ سلامى للراجل اللى كان معاك فى المستشفى، الدكتور بلال هو دكتور فى إيه؟

خالد يتذكر:

–آه، دكتور فى إيه ؟ يتذكر مليًا ويرد :

– فى التنمية البشرية.

– يعنى إيه التنمية البشرية؟

القطة سحبت كيس الفلوس بأسنانها ظنًا منها أنه كيس لحمة، حرامى تسلق على المواسير وخطف الفلوس وهرب.

– ما تمشى ياعم الحاج بقى.

هذا ما قاله خالد فى سره وهو يرد على سؤال صاحبه:

– التنمية البشرية يعنى تحلل الناس وتكشفهم .

عقد الأخير حجباه وسأل مستبينًا أكثر :

– ازاى؟

خالد فى داخله: الله يحرق التنمية البشرية والدكتور بلال واخوك اللى فاقد الذاكرة الله يلعن اليوم اللى شفتك فيه تولعوه

فـى يـوم واحـد: يعنـى تحلـل الشـخص اللـى قدامـك وتعـرف هـو بيكـدب ولا لأ!!

هـذه الإجابـة شـعر السـائل أنـه دخـل منطقـة قـد لا يسـتوعبها ففضـل أن ينسـحب بشـياكة:

– فرصة سعيدة يا أستاذ خالد، سلاموا عليكم.

لم يـرد خالـد السـلام وأغلـق البـاب حتـى لا يعـود فيسـأله عـن ازاى بيكـذب؟ احتضـن الكيـس الـذى يغلـف العشـرين ألـف جنيـه التـى دفعهـا لعمليـة المصـاب احتضنهـا كأنـه يحتضـن ابنـه العائـد مـن العـراق بعـد عـزو الأمـيركان، يفـرح فرحـة جمهـور الزمالـك بالفـوز بالـدورى «وقبضنـا كلـه يرقـص».

خالـد أغـرّه شـكل الفلـوس فاختلـى بهـا فـى غرفـة النـوم، انكفـأ علـى سـريره وبـدأ يداعـب الأوارق الماليـة بعدهـا، وهـو يعـد الأوراق: هاهاجـر هاهاجـر ماعلهـش يـا أم الدنيـا مضطـر اسـيبك وامشـى بعـد فلوسـى مارجعـت «أهاجـر واسـيبك لـين « هـز رأسـه رأسـيا وقـال: أنـت طيـب يـا اسـامة ياعبـاس! الحـاج بخيـت لمـا كتـب الأغنيـة دى كان مقيّـل تحـت شمسـية فـى العـين السـخنة، (أهاجـر واسـيبك لـين، وانـتِ غبيـة واللـى حاكمـك عميـل، أهاجـر واسـيبك لـين، لصبـاع الكوفتـة وجهـاز فـيرس سـى).

– إشـطة طـب مـا انـا باقـول اهـو، ! سـيبنى مـن أم الدنيـا واتصـل بالدكتـور بـلال أبسـطه معايـا شـوية واشـوفه فـين؟ تلاقيـه بيحلـل لحـد وبيقـول لـه علـى اللـى جـواه، الراجـل دا سـاحر!

– الو، دكتور بلال ازيك، انت فين؟

– أزيك يا خالد, أخبارك إيه؟

– تمام تمام ومبسوط وهابسطك معايا.

– خير ربنا يبسطك، يعنى رايقة الأيام دى؟

– ع الآاااخر، يا سيدى نتقابل عشان عايزك وفيه أخبار هايلة .

– جميل، نتقابل بكرة فى المستشفى ونزور صاحبنا .

– سيبك من المستشفى عشان خلاااا ص مش هنعتّبها تانى.

– ليه؟ خير قلقتني، الراجل حصله حاجة؟

– ياعم هيحصله إيه؟ ما تقلش اخواته لقيوه وروحوه معاهم ورجعوا لنا فلوسنا، فلوسنا رجعت لنا يا برنس.

– والله، انت بتتكلم بجد يعنى أهل الراجل جم المستشفى واخدوه؟

– آه.

– الحمدلله، ربك كريم، الراجل كان صعبان علىَّ، الحمدلله، ربنا يتم شفاءه، خلاص نتقابل فين يا خالد؟ تيجى فى الفندق اللى انا نازل فيه.

– ليه ياعم؟ انت ضيفى بكرة هنتغدى مع بعض فى شقتى.

– خلاص يا خالد على تليفون عشان أنا هابدأ دى الوقت محاضرة.

– هتحلل الناس وتعرفهم انهم كذابين؟

ضحك وعقب:

– الله يجزيك، لما نتقابل، سلام .

خالد بعدما سَلَتَ ورقتين بمائتين من الرزمة:

– الواحد ينزل بقى دى الوقت يشبرق نفسه ونجيب حاجة نعملها غدوة بكرة للضيف اللى جاي.

قابل الشيخ محمود فى الشارع، بعد المعانقة التقليدية والسلام:

– إيه رايح فين يا خالد؟

– راياح أجيب كيلو سكر.

– واخد فلوس بزيادة ولا لأ؟ أحسن السكر غلى، زى كل حاجة ما بتغلها!

– أوعى تقولى المكرونة كمان غليت؟

– هووهووو: المكروونة والرز، والفول والزيت، والبنزين. واللحمة والطماطم، والعنب..

– أهه: دا باين كل حاجة فى البلد دى غليت!

– بالفعل يا أخ كل حاجة غليت.

يضحك خالد ويردف:

– أهه أمال إيه الرخيص ؟

يرد بحرقة وبجدية تثير الغضب :

– أنا وانت يا مواطن , ثم محثًا خالد :

– بكرة ياخالد طالعين بعد صلاة العصر بلّغ اللى تعرفه.

يسأل خالد من قبيل السخرية:

– عشان الروز والزيت؟

يرد الشيخ محمود بنبرة شديدة اللهجة:

– عشان البنات ياخالد، والا أنت نسيت؟

خالد يتبرأ من نبرته الهزلية التى كان يتحدث بها ويرد بحدة:

– يعنى لما احنا نطلع ونعترض بالطريقة دىَّ هيفرجوا على البنات، ثم يضغط على أضراسه قائلا:

– يا عم محمود الناس دىَّ مش هينفع معاه الا...

تنهد وتذكر المقاومة الشعبية، سيبنى الله يبارك لك دى الوقتِ، أنا نسيت كنت خارج اجيب إيه؟

بعدما ابتعد خطوات عنه أعقبه الشيخ محمود بهذه الكلمات:

– أمال لو ماكنتش لسه جاى من عندهم من كام يوم؟!

ظل كلام الأخير يشاغب تركيز خالد وهو يتسوق ويبتاع , حتى شاء أن أن يفرغ لهذا الكلام مع نفسه

أن تحمل هّم قضية .. وفي نفسك إحساس بالعجز.. أنت لست أهلاً لها !

ابتاع طلباته التى لم تُبق من ورقتى المائتى جنيه سوى لاشئ، هذا لسد وجبة غذاء واحدة لفردين. دخل شقته وبعدما أودع الثلاجة أمانته لتحفظها له حتى الغدا، ثمة ركن فى حجرته طالما يستريح ويحادث نفسه فيه.

جلس يتحدث مع نفسه بعدما انتابه شعور التقصير تجاه القضية التى تؤلمه وتألم كل حرٍّ فى وطنه، ثم محدثًا نفسه:

– إيه اللى أنا قلته دا للشيخ محمود؟ مش معنى انى ما عدت مقتنع بالمظاهرات والاحتجاجات التقليدية، مش معنى كدا أنى أنسى القضية أو أفرط فيها.

هرش فى مؤخرة رأسه:

طب والبنات دى بس إيه اللى يخليها تطلع ما دية حاجة برضه مش كويسة وأنا مش مقتنع بيها، ويقولوا دى وسيلة ضغط، ضغط إيه؟ على أساس أن البُعدا عندهم نخوة قوى!! دى الشرطة ولاد الكلـ...، بيمسكوا البنات وبيعملوا فيهم اعمال ما ترضيش إبليس! دا ابو جهل كان عنده نخوة ورجولة عن نظامنا، ولا المسيرات اللى بتلف فى شارعنا والشوارع اللى جنبنا، المسيرات دى بتسمع مين!! أخرتها؟ احنا زى اللى بيلف فى ساقية بالطريقة دي! لزماً يكون فيه حل من خارج الصندوق زى ما بيقول الدكتور بلال، عقاب ثوري، حاجة عنيفة تخوف، مش ننزل نتعبى غاز ونتخرّم بالرصاص ونرجع. دا كلام دا؟!! لما اتصل بالشيخ محمود اشوف خريطة بكرة والخطة الموضوعة للدفاع، « هل هى سلميتنا أقوى من الرصاص «، والا «بالروح والدم انزل ياخال وياعم».

هنـاك تجمـع شـبه سـرى كان الأخـوة يتناقشـون ويتحـاورون فى أمر المسـيرة ويسـتعدون لمقاومـة ردعهـا ..وردهـا مـن قبـل الأمـن ,بسـلميتهم التـى هـى أقـوى مـن الرصـاص، الشـيخ محمـود لإخوانـه:

– خالد بيتصل.

أحد الأخوة:

– شـوفه عايـز أيـه .. وماتقلـش لـه احنـا فـين لـو سـألك؛ خالـد بقـى بيهـزر كتـير.

يـرد الشـيخ محمـود علـى الهاتـف بعـد المداولـة السياسـية السـابقة مـع أخٍ لهـم:

– السلام عليكم ورحمة اللّه..

– وعليكم السلام ورحمة اللّه.

– إيه ياشيخ محمود المسيرة بكرة بمشيئة اللّه طالعة منين؟

الشيخ محمود:

– زى كل مرة يا خالد من الجامع بعد الصلاة بإذن اللّه.

خالد باستفهام يشوبه الضحك:

– أنتم فين دى الوقتِ، فى الدُرة والا السكرية؟

ثم قهقه.

الشيخ محمود يبدى إنهاء المكالمة بضجر وأسف:

– عايـز حاجـة ياخالـد عشـان شـكلك عايز تهـرج واحنـا ماعندناش وقـت لتهريجك.

خالد شعر بالخطأ فاستدرك بنبرة متأسفة:

– ماعلهـش ياشـيخ مـا انـا لـو ماهرجتـش فـى البلـد دى هانفِجـر ولا يجـى لى جلطـة واموت شـهيد الصمـت.

– سلام نتقابل فى المسيرة.

أشباه أحياء (الفقر٧)

هنـاك فـى بيتهـم كان الحديـث بينـه وبـين أمـه فـى أمـر شـغل المبيـت، أمـه تتبسـط الأرض، ترقّـع بالخـوص القفـص المفتـول مـن جريـد النخيـل وهـو يجلـس كعادتـه علـى كنبتـه المتهالكـة.

وهى ترقع القفص:

– يابـني، بـلاش الشـغل البيّـات (اى شـغل المبيـت) وخليـك فـى تـروح الصبـح وترجعلـى آخـر النهـار أحسـن لـك.

هـى تـدرك أنـه عمـل شـاق وصحـة ولدهـا لا تتحمـل مشـاقه، كمـا أنهـا لا تريـده أن يبتعـد عنهـا، نوبـات السـكر تزورها من حـين لآخر .

– يامـا إن طالـع مـع المعلـم فريـد اللـى بشـتغل معـاه ومافيـش شـغل تانـي، وهـى مـدة ولا اتنـين أعمـل فيهـم قـرش كويـس وبعـد كـدة أشـوف حاجـة علـى قـدي.

لم يخبرها بأمر السفر.

– خـلاص يانبيـل، تـاكل كويـس ، ونـام بـدرى يانبيل ما تسـهرش تلعـب الكوتشـينة والدومانا.

جمع أشلاء ملابسه فى حقيبة استعارها من أحد جيارنه وبات ليلته معتزما النية (الاستيقاظ فجرا).

الأم المريضة تقاوم مرضها وضعف بصرها وتقوم كعادتها فى وقت الفجر، قامت ثم أيقظت نبيل. قام نبيل بخفة ونشاط أمر السفر هون عليه أمر الشغل. أخذ نبيل حقيبته وودع أمه، فاستسلمت للواقع المفروض وتركته يحمل حقيبته متدلية على كتفه الأيسر، ذاهبا لعمله:

– روح يا بنى يوقف لك ولاد الحلال، ويرزقك ويسترها معاك أنت واللى زيك.

صوت ديك الجيران يهلهل كأنه يودع نبيل هو الآخر ويدعو له. إنها طقوس الفجر، صوت الديك يقطّع خيوط الدجى لبشائر الصبح الطالع

غادر نبيل ومعه دعوات أمه تصحبه للأسكندرية، ليس للتنزه أو المصيف والترفيه، أنما للعمل الشاق والأرتزاق العسير، والسعى وراء حلمٍ طامٍ على مخيلته

سيارة مكروباص ذات سقف عالٍ يستقلها نبيل ورفقاؤه فى رحلة البحث عن الجنيه، فلتسعد يا نبيل أنت ومن معك؛ كرمت آدميتكم هذه المرة، لم تركبوا الربع نقل، ولكن عذرا لن تحترم كثيرا؛ العربة عليها أن تحمل عدد أكثر الزحام سيصاحبكم طوال الرحلة. «افسحوا لأخوكم دا يتحشر بينكم كلنا رايحن ناكل عيش» قالها المقاول.

ركبوا دون اعتراض سوى استياء بسيط احتواه المقاول، دار محرك السقف العالى إطارات السيارة تصافح الرصيف الذى لم ينشف من الندى الفجري، العمال تتمايل رؤوسهم، وعيونهم تغفو، القائد يستأنس بأذاعة القرءان الكريم على إشارات الرادايو من أجل أن يسترها المالك معه، وكلما راح الشيخ فى الإذاعة يتلو الآيات تختفى خيوط الليل على رصيف الطريق حتى وقفت السيارة قرب شاطىء العجمى، الإسكندرية، قد وصلوا إلى ميدان العمل، شاليهات تحت الإنشاء، مهمة نبيل ورفقائه تجهيزها وإتمام إنشائها لأصاحبها الأغنياء.

نزل نبيل من السيارة ونسيم البحر يداعب وجهه ويداعب أرق الرحلة فى أعضائه.

– قشطة يا معلم فريد احنا هنشتغل فى الشاليهات دىَّ اللى على البحر؟ أقصى ما يتخيله نبيل ورفقاؤه أن يفعلوا فى مثل هذه الأماكن، وقد عبر سؤال نبيل عن ذلك:

–آه يا نبيل وهنبلبط فى المية بعد ما نخلص شغل، بتعرف تعوم على كدة ولا لأ يا نبيل؟

– ما بعرفش بس هبلبط، ما تخفش هاجبـ

قاطعه صوت المقاول:

– يالأ يا معلم فريد أوريك مكان شغلك.

ثم أدخلهم شاليه نصف تشطيب، نبيل والمعلم فريد عرفا مكان عملهم الذى يقضون فيه أيام مدتهم استعانوا على الشقا

بـالله عجـن نبيـل المونـة (المـلاط) وينـاول علـى الطالـوش المعلـم فريـد ليلطمهـا بالحوائـط بسـلاحه المعنـى الـذى يـبرى صحـة صاحبـه قبل ان ينـبرى (البـاروة) ويسـاويها بالـذراع الألومنيـوم ومـن ثم يقوم بتخشـينها هكـذا دواليـك يوميـا، يحولـون الشـليه مـن هيـكل مـن الطـوب الأحمـر إلى شـاليه جاهـز للتعمـير والسـكنى، كل يـوم يفـرغ نبيـل وزمـلاؤه مـن العمـل الشـاق ينحـدرون إلى شـاطيء ذلكـم البحـر المـالح الـذى يعكـس لـون السـماء الأزرق، يمتعـون أنفسـهم باللعـب والسـباحة علـى جُـده، مصيـف مجانـى ينعـم بـه هـؤلاء الذيـن لا يـرون البحـر هـذا إلا فـى مثـل هـذه الحالـة (العمـل فقـط) عليهـم الآن أن يغتنمـوا هـذه الفرصـة اسـبحوا ماشـئتم واعبثـوا فـى مـاء البحـر.

وإنهـم يـا سـاحل قـد جـاءوك معمريـين، لا سـائحين ولا متنزهـين.

رفقـاء نبيـل يداعبـون شـاطيء البحـر منهـم مـن أخذتـه مهـارة السـباحة وراح يسـتعرض بهـا، ومنهـم مـن اسـتعان بإطـارات بلونيـة تحمـى مـن الغـرق ومنهـم مـن اكتفـى باللعـب علـى حافـة الشـاطىء دون الخـوض فـى العمـق وكان نبيـل مـن هـؤلاء الجبنـاء نبيـل ينظـر للبحـر ويتأمـل مـداه الواسـع، يريـد أن يصـل بـأم عينـه إلى الشـاطىء الشـمالي، يسـأل صـوت البحـر الجـارف: متـى يـا بحـر؟

نبيل، ما تنزل ياض، أنت خايف؟!

قالهـا وهـو يزفـر ويلعـب برجليـه كسـمكة البلطـى ويـداه تجدفـان حتـى لا يسـحبه التيـار.

نبيل:

– لا ياعمى أنا باخاف مش باعرف أعوم.

– يعوم على ظهره يبدو أنه ماهر فى السباحة: ما تخفش تعالى هاعلمك .

– ياعم أنا مبسوط كدا، الميه جيه لى لحد وسطي، وادينى بابلبط زيكم أنا لزماً أعوم.

يغطس ويطفو ونبيل ينظر إليه ويقول فى سره: يابن اللعيبة. .!!

يقترب ويشد نبيل من يده تعالى ما تخفش.

نبيل يقاوم كأنه سيورده النار:

– لأ يا ياسطى هاغرق هاغرق، فووو، فووو

– يا جبان ياض هعلمك، هتفضل جبان وخايب، أعلمك لوقت عوزة

– لأ مش عايز أعوم.

نبيل يتأمل البحر وينظر إليه ويشد شاطىء الشمالى بعينه ويريه نفسه وهو يركب هذه البحر ويخوض عبابه بالمركب الذى سيكتب له حياة أخرى.

نعم يا نبيل سيكتب لك حياة أخرى أبدية.

* * *

أربعة أطفال يركضون وراء شيء مستدير فى حجم حبة الكنتالوب، وكان أحرفهم يراوغهم كما يراوغ حفر الشارع ومتعرجاته. هذا الحريف بإمكانه المرور من دفاع إيطاليا إن شاء، ولو رآه لويس إنريكى لأجلس له ميسى إحطياطيًا

– خد يا ابن الشيخ، يا ابن دين...

أخذ الطفل الكرة بعدما ركله أحد الأربعة وسبه لأنه أراد أن يأخذ كُورته.

يرد الصبى وهو يحتضن حبة الكنتالوب الجلد:

– أهو أنت ها...

* * *

– هى الخناقة كانت مع ابن الشيخ ياما؟

دنا نبيل بسؤاله لأمه وهو متكئ على كنبته

تتصعب أم نبيل وترد:

– ابن الشيخ إيه يابنى اللى يتخانق ! ربنا يفك زنقة أبوه، الواد مالوش فى المشاكل زى أبوه فى حالهم، من يومهم ما اسمعنا لهم حس، والست من ساعة ما جوزها (تقصد الشيخ) ما البُعدة حبسوه وهى محادية على ولادها، قعدت معاها اطمن على حالها

ثم وضعت أم نبيل يدها على ذقنها وأكملت:

– الست حكت لى اللى يقطع القلب: قال قال إيه يا بنى متهمينوه إنه قتل ظباط شرطة وأنه شغال قناص، قناص إيه البعدة ماعندهمش نظر، ماعندهمش عقل! ! الراجل الكفيف قناص ازاى؟!

يسمع نبيل صوتا فى الشارع يسب ويشتم قائلًا: على الطلاق لاروح أشق ابن..(قذق) واللى هيعمل دكر فى الشارع دا ويحاول يحوش هاشقه قبله

نظر نبيل من الشباك فرأى شخصا يحمل سنجة كالسيف ووراءه شباب متسلحين بشتى الأسلحة البيضاء .هاج الشارع وحمى وطيس حرب الشوارع، وتراشق الطرفان بالسباب والشتائم وتحدثت لغة المطاوى والسيوف ومعها الشوم والعصا الثقيل، وقذائق الحجارة من أعلى الأسطح من النساء والصبيان، ولم يكن نزيف الدم شفيعا لتهدئة الحرب وتحكيم العقل، بل كان كالبنزين زاد من هياجها أكثر وأكثر ولم يكن أيضا شج رأس أحدهم وبتر ذراع آخر وكسر رجل ملهاة عن إستكمال الحرب، حتى أخمدت المعركة بعد سماع سرينة الشرطة تزعق من طريق الأتوستراد، وبدورها الأمنى لحماية الوطن جاء رجال الأمن البواسل – بعد خراب مالطة – كعادتهم يأتون بعدما يصيب الطرفان من بعضهما.

حرب شوارع أججتها نماذج الدراما والسينما تحت ما يسمونه: تصوير الفن للحياة المصرية فما كان إلا تمثيل الحياة لما فى الدراما والأفلام وليس العكس! !

أخمدت الحرب وشَرع المكلف من جهاز الشرطة بإثبات الحالة والقبض على بعض النساء والأطفال ومن لم يستطع الفرار.

وجاءت التقرير كالآتى:

نشبت معركة فى شارع كذا فى منطقة كذا، أسفرت عن مقتل شيخ عجوز لم يكن له دخل بالخناقة وطفل وامرأة واثنين من الشباب فضلا عن إصابة العديد بجروح عديدة.

هناك فى قسم الشرطة احتجز من استطاعت الشرطة القبض عليه وكان من بينهم أبو الولد الذى ركل ابن الشيخ الكفيف ليتقابل الاثنان فى زنزانة واحدة، فيسأله الشيخ عن سبب إتيانه إلى الحبس فيخبره الرجل عن الخناقة.

الشيخ وهو يسبح على أصابعه وحوله المساجين بوجوه مستنفرة يحدقون فى هيئته، سأل:

– إيه السبب يا اسطى؟

يرد بلامبالاة للشيخ:

– العيال ولاد المحروقة كانوا بيلعبوا بالكورة وابن المدعوقة ابن سيد أبو شامة عامل فيها ابن رئيس جمهورية وبيخبط فى العيال اللى بيلعبوا معاه وبيضرب الواد ابنى وبيقولوه أنت بتضرب ابن الشيخ ليه؟ فالعيال اتكاتروا عليه وضربوه، والواد ابنى راح معلّم عليه بالموس. فأبوه سحب شوية صيّع وجى وبيقول هاشق الواد واللى الحتة اللى قاعد فيها أهل للواد.

يعقب: يعنى ابنى السبب، (ثم بضحكة ساخرة) احنا دايما السبب واحنا الضحايا.

يأتى صوت ونادى الشخص الذى أتى فى الخناقة، خرج من الزنزانة وبعدها بساعة سأل عنه الشيخ العسكرى فأخبره أنه خرج وعاد لحال سبيله، ليفسح ساحة الزنزانة للشيخ الكفيف «القناص» فتلك الأيام لا مكان للجنائيين لانشغاله بالسياسيين.

* * *

عاد لأمه فى اليوم الخامس عشر من ذهابه الإسكندرية وهو يكاد لا يقدر على حمل حقيبته التى يدس فيها أشلاءه من ملابس عتيقة ومتسخة، تسعد الأم المريضة بعودته كأنه عاد من ليبيا أو قطر – لم يكونوا غير خمسة عشر يوما ياأم نبيل – ما علينا، ألقى بحقيبته أرضاً بجانب مصرع الباب ووضع كيس الجوافة على الكنبة قلما تزور الفاكهة حرم بيتهم الهش، اليوم نبيل هو من زار الفكهانى واصطحب كيلو ونصف الكيلو جوافة، محفظته اليوم عامرة بالوريقات الحمراء:

– ازيك ياما؟

– نبيل، حمدلله على السلامة يا حبيبي؟

طقوسات السلامات وترحيبات العودة شغف الأم وقلق الأبن، الأم المريضة والأبن الوحيد هى بحاجة إليه لمرضها وهو بحاجة إليها لدعواتها وهى أمه.

بعد الفراغ من طقوسات السلامات نزع ملابسه التى تشتكى عبق العرق الخام وأسال على جسده المؤرّق جردلاً من المياه الباردة، تمت هذه العملية فى عرصة حمامهم الذى لا يتسع لاثنين يقفان فيها لضيقه. بعد الشاور البلدى سجى نبيل جسده

على ظهر كنبته التى افتقدته وافتقدها طيلة الخمسة عشر يوما استراح نوماً حتى العشا.

أمه تمسك بحقيبته وتفرغ ما بأحشائها من ملابس متسخة وعتيقة، تصنف الملابس حسب نوعيتها، لباس، فالنة، ملابس متسخة أو عتيقة للشغل وتضعها فى آنية بلاستكية، وإن كانت لا تستطيع التميز بين النوعين الآخرين لشيء فى عينها، قبل أن توقظه تحسست الطريق بعصاها إلى محل البقالة الذى يبعد أمتارا عن بيتهم:

– ازيك يابو كريم؟ إدينى علبة جبنة وحبتين زيتون ثم أخرجت الصرة وأخرجت له ورقة بعشرة جنيهات – كانت هذه الورقة أنيسة ورقة أصغر منها حجما وقيمة فى الصّرة باتت وحدها تعانى ظلام الصّرة، لم يعد من العشرة جنيهات شئ إلى الصرة.

– خلاص يام نبيل خلاص والله .

– تسلم يا اخويا، إزى حماتك؟ وبنتك ربنا نتعها بالسلامة؟

وهو يناولها طلبها:

– حماتى تعيشى انتِ والبت جابت(فوزية).

أخذت حاجاتها:

– الله يرحمها، على اسم جدتها.

رمقها أبو كريم البقال بنظرة تعجب وهى تتوكأ على عصاها تنسحب من أمامه كالأوزة العرجاء، عادت للبيت، أحضرت صنية بلاستيك مستديرة وضعت عليها أطباقا فارغة يبدو أنها كانت تتصارع مع بعضها، أفرغت فى جوفها ما يسد الحاجة، مددت

المائدة – المعدومة– فى فراغ بين الكنبة– التى ينام عليها نبيل– والسرير، المائدة تشغى بما لا طاب ولذ، قطع معلبة وجبن مغلف وأرغفة من العيش البلدى الذى يحتاج إلى أضراس تنينن لقضمه، وحبيبات من الجوافة التى اختلسها نبيل من سطوة فقره.

– قوم يا نبيل قوم ياحبيبى جهزت لك الأكل قوم رمّ عضمك!

نبيل يأكل وهو فى خصام مع معدته كأنها تقول له: إنى اغص بهذا الطعام الم تعكف عليه طيلة الأسبوعين الماضيين؟ أين الطهى؟ أين ما طاب ولذ، اين اللحم والمكرونة أو الرز؟

يعتذر نبيل لمعدته ويجبرها على تقبل التونة والجبن، فهو من يطهو هذى النوعية من الطعام فى العيد الأسبوعي، غداً غداً سأطهو ماطاب ولذ.

يلقى باللقيمات إلى جوفه ويبلّعها بجرعة ماء معكر آسن فى قعر الجوز، رغم تمرد معدته عليها. تمسك أمه بحبة جوافة وتبسطها إليه:

– خدى يابني.

فرغا من طعامهما ورفعت المائدة بعبارات الحمد التقليدية على لسان الأم المريضة سائلة إياه وهو يغص بالماء العاكر:

– اخبار الشغل معاك إيه ياضنايا؟

احتك عود الثقاب على الكبريت ليشعل رأسا نارية زادت من الإضاءة الباهتة– للغرفة الهشة– فى عين أمه المظلمة، ثم نفث فى الرأس المشتعل بعدما أحمرت مقدمة سيجارته:

– شغل المبيت والله ياما مُتعب جامد آخر حاجة.

– ما أنا ياحبيبى قلت لك اشتغل باليوم .. تروح الصبح وترجعلي أخر النهار أحسن .

شد نفسا وزفره فى شكل هندسى مقصود:

– ياما الموجود بقى هاعمل إيه أحسن من العقدة على الكنبة والتسكع على القهاوى.

بمواساة مجبرة وحنان أكلمه وأكدمه اليأس:

– ماعلهش ياضنايا، احنا عايشين فى زمن صعب، لقمة العيش للى زينا مش بتيجى بالساهل، بطلوع الروح على ما نكلها، وممكن روحنا تطلع قبل ما نكلها! !ثم وضعت يدها وقالت:

– والنبى الحاجات كلها غليت الرز والمكرونة غليوا، دا الواد اللى بيجيب لى الجرجير والفجل كان بيعد لى التلت ربط بجنيه، دى الوقت بقى يعدلى الربطة بنص، باقول له: يابنى قال لى: ياحاجة انتِ مش عايشة فى الدنيا، الدولار رفع وكل حاجة غليت معاه، الروز والمكرونة والزيت غليو. ! بقيت يابنى أسلت من كل حزمة كام عود وأرّبط، اعمل إيه؟ ابيع الحزمة بستين قرش الزباين هتدينى نص ويقولوا مامعناش البريزة وما ينفعش أغلى عشان فى ناس غلابة زينا.

– ياما استريحى انتِ عيانة.. سيبك من الجرجير والفجل، هى القاعدة على الحجر فى الشارع بتجبلك كام؟ اتنين جنيه طول النهار؟!

رنت إليه وبلسان وهبه الزمان الحكمة ببؤسه وشددته قالت:

– يا بنى النواية بتسند الزيّر، وممكن كمان فى زماننا دا مانلقيش النواية!! عشان ماحدش حياكل بلح،!! ابتسم نبيل: والله ياما انتِ اللى بلح، أنا طالع شوية وراجع عايزة حاجة؟

– لأ يا ضنايا مش عايزة.

خرج نبيل إلى الشارع الذى تسبح فيه أسماك المجارى واتجه ناحية المقهى ليقابل أستاذ (وليد) دقائق وأتى كعادته الأستاذ (وليد) جلس بجوار نبيل، نفث حجريه التفاح، شرب كوبه الخمسين (الشاى) ونبيل يزعجه بأمر السفر.

– يا نبيل أنت لسه ما جمعتش تمن علبة الجنبة اللى هتاخدها معاك تاكلها وانت مسافر وماتقلش الراجل قال لى: احنا بنسفر على طول، يعنى فى إى وقت فلوسك هتجهزك هتسافر النهاردة بكرة الشهر الجاي، السنة الجاية، وقت ما تجهز بفلوسك. اطمئن نبيل لأمله فى السفر وعزم الصبر على أمر المعمار حتى يكمل تكاليف الهجرة وعاد لبيته لينام ليقوم فى الصباح الباكر طارقًا باب رزق شاق.

انعمس نبيل فى العمل المعمارى ما بين المبيت وشغل الذهاب والإياب .. وكلما تحصّل على مبلغ دسه فى الكيس الذى يجمع فيه المال الذى يعده ويحصيه كل يوم حتى مرت ستة أشهر أحصى نبيل محصوله المالى لتلك الفترة فلم يجد نفسه يمتلك سوى بضع مئات من الجنيهات

متبقى سبعة عشر ألفا ليكتمل نصاب ثمن الهجرة ماذا يفعل نبيل وقد فقد صحته ومعها صبره، العمل شاق، كما أن أحواله متذبذبة؛ «يوم شغل وعشرة لا»، هذه الطائفة تتأثر بالأحوال الأقتصادية التى تنهمك بسبب سعر الدولار، نبيل يشتكى لنفسه لكنه عاد وصبر وكافح المعمار بمشقته وحاله المتذبذب الذى لا يستقر حتى مر عام بين أضلع نبيل جمع فيه ثمانية آلاف جنيه، الأمر الذى أجبر نبيل للبحث عن حل آخر لجمع المال وأخذ يفكر فى حلول غير المعمار، حتى أتته تلك الفكرة. فكرة أن يجد أحدًا يرهنه مسكنهم مقابل ثمنه، أخذ نبيل يفكر ويفكر ويفكر، ويبحث من هذا الذى من الممكن أن يكون فرجًا له.

سلطة المال (٥)

فى مصر إن امتلكت المال اشتريتَ كل شىءٍ حتى البشر.

هنـاك فـى شـقة المعـادى كان الشـاب الثـرى – ابـن النـاس – ينتظـر أحـد القوادين ليأتيـه بالجسـد البكـر؛ ليفترسـه بأنيـاب شـهوته ويتلـذذ بقتـل عذريتـه!!

عقـرب السـاعة السوسـرية يشـير إلى منتصـف الليـل ، جـرس الشـقة الصينـى يـدق رنتـه. عليـه الأن أن ياتـى علـى نفسـه بعـض الشـيء ويقـوم ليفتـح البـاب

يلقـى بجهـاز التحكـم الـذى كان فـى يـده بعدمـا أخرجـه صـوت الجـرس مـن ذروة النشـوة.

رأى فـى شاشـة الكاميرا مـا ينتظـره، نموذجًـا ممـا كان يشـاهد فـى التلفـاز. يبـدو أن هـذه القـواد سـينال عطـاءً موفـورًا هـذه المـرة، قالهـا وهـو يقـترب مـن البـاب ليفتحـه.

يفتح الباب:

– باشا.

أصلـع، ألـدغ، نبرتـه نسـائية، (مائـع)لا يخـرج اللبانـة مـن فمـه يسـمى فـى الوسـط (قرنـى).

عينا الثرى تغفل صاحب الصوت وتمسح الجسد البكرى مسحًا شهوانيًا لكل جزء. يعض على شفته السفلى. البكور لهن طعم خاص هذا الثرى – ابن الناس – يغوى لعبة فض الزجاجات البكرية يرتشف منها ما يمتعه ثم يترك سؤرها للآخرين. الزجاجات البكرية والزجاجات الكحولية تتساوى قيمتها وثمنها، بل– أحيانا –زجاجة النبيذ قد يرتفع ثمنها عن الزجاجة النسائية.

– ادخل ياقمر، ونظره مازل متفحصا قطعة الكريستال، شقراء الشعر، هيفاء الخصر، خضراء العينين، محمرة الخدين، وكل هذا من صنع البودرة وفعل المساحيق.

القواد يذهب حيث يشاء؛ مهمته انتهت عند هذا الحد.

وفّق رأسين فى الحرام ثم قبض عملته من سيده.

وليرحل هذا القرني ..

زف البكر إلى حيث من أجله جيء بها,غرفة مجهزة بأحدث الوسائل المنكرة خمر ونبيذ، ولفائف دخان، وحبوب منشطة، فضلاً عن العدسات المصورة المخفية فى زواية الحجرة، فكل أنثى دخلت هنا لها فيلم ذكرى.

هذا الثرى يجمع على الهارد ديسك داتا إباحية لعشرات الزجاجات التي فضها، كل المنتجات خامات مستوردة كل شيء فى الغرفة استراد خارجى إلا عرض هذه البكر الذى سيسكب الليلة. كل شيء استراد إلا هذا، محلى الصنع.

«كل شيء فيك غالٍ سواى انا رخيص».

(خالد٦)

فـى ظهـر اليـوم التـالى هاتـفَ الدكتـور بـلال علـى الغـداء, وفي ظهـيرة اليـوم أسـترد أمانتـه التـى أودعهـا الثلاجـة وشـرع فـى طهـى الطعـام الـذى سـيقرى بـه ضيفـه. وبصنعـة ربـة البيـت الحاذقـة الماهـرة في تقنيـة الطهـي إسـتطاع خالـد فـى أقـل مـن سـاعة ونصـف السـاعة أن يحضـر وجبـة كاملـة الدسـم مـن الحـم والأرز والبطاطـس البانيـه وبعـض اكسسـورات الطعـام مـن سـلطات وغـيره، خالـد تعلـم هـذا مـن المعسـكرات الصيفيـة التـى كان ينضـم إليهـا مـع الأخـوة المطاردين فـى السُـكرية والـذرة علـى حـد تعبـيره.

الواحـدة والنصـف، تعانقـا بحـرارة كمـا يتعانـق لاعبـو الزمالـك عندمـا يحـرزون هدفـا فـى مرمـى الأهلـى, وبترحيـب حـار:

– أهلا صديقى.

– ازيك ياخالد

– مرحب يا دكتور بلال عرفت تيجى أها؟

جلـس الدكتوربـلال خبـير التنميـة البشـرية علـى الجنـاح الأيمـن للأنتريـه وقابلـه خالـد جالسـا فـى الجنـاح الآخـر، خالـد يبتسـم ومـازال يكـرر جُمـل الترحيـب التقليديـة ثـم تطـرق الحديـث بانسـيابية

إلى المصاب الذى رفقاه مدة فى المستشفى وعن لقاء أخيه بخالد ورده للنقود التى دفعاها.

خبير التنمية البشرية:

– أهى فلوسك ياعم رجعت لك، أنت كنت محسسنى إن الفلوس دى كل حياتك.

– والله يا دكتور بجد المبلغ دا عليه أمل كبيير.

– الخبير إيه ياعم الأمل الكبير؟

– بعد الغدا احكى لك على القصة.

مُدت المائدة وكل منهما راح يطعم عصافير معدته بما تجود به المائدة.

– ايه يا دكتور أنت محرج ولا عامل رجيم؟

– الحمدلله، سفرة دايمة، ولا أقول لك دايمًا عامر؟

يضحك خالد وهو ينهش ورك المرحومة:

– خلّى البساط أحمدى.

وهو يرفع المائدة ويلملم سؤر الطعام:

– شايك إيه يادكتور؟

يرد:

– بعد الأكل مباشرة ماباشربوش.

خـلاص حاجـة غـير الشـاى مـش مضـرة بصحـة الطعـام، ثـم دخـل مطبخـه وخـرج بكوبـين مـن زجـاج يعكسـان لـون مـا يعبئهمـا باللـون الأصفـر الداكـن.

خبير التنمية يسأل:

– أنت عايش لوحدك هنا يا خالد؟

– لأ مـش لوحـدى عايـش معايـا القطـة البيضـا اللى كانـت بيتحنس علينـا واحنـا بنتغدى.

يضحـك ضحكـة خفيفـة دبلوماسـية – مـن أجـل العيـش والأرز الـذى أكلـه معـه – يبـدو أن مداعبـة خالـد لم تكـن علـى المسـتوى فخالـد يكثـر مـن هزلـه، هكـذا أسـتاء الرجـل.

– لأ انا قصدى يا خالد بنى آدمين مش حيوانات أليفة.

خالد يتنهد كأن السؤال جاء على الجرح:

– انـا عايـش لوحـدى مـن وقـت مـا طلقـت المـدام وزى مـا أنـت شـايف أنـا عايـش فـى الشـقة دىَّ أربـع اوض وصالـة اللـى أنـا و حضرتـك قاعديـن فيهـا ومطبـخ وحمـام ومنشـر وبلكونـة زارع فيهـا ورد بيدبـل وبيمـوت عشـان مـا بيشـربش لمـا بغيـب عنـه، ولأنـى باغيـب كتـير لـزوم شـقا السياسـة بارجـع ألاقيـه يبـس بعـد خضـرة.

بعدما لعنه فى نفسه على سرده الحشوى سأله:

– مالكش أهل يا خالد؟

يرد:

– الوالد والوالدة خدوا نصيبهم من نعيم مصر وقضوا نحبهم من تمن سنين ولَّ أخوات بنات اتنين متجوزين، زيارتهم لَّ زى زيارات منتخب مصر لكاس العالم!! مش متذكر أخر زيارة كانت أمتى، حضرتك فاكر؟

بضحكة خفيفة سائلًا:

– زيارات أخواتك ليك ولا زيارة المنتخب لكاس العالم؟

يزيغ بصر خالد عنه ليشرد إلى الخيال، يتجاهل بلا قصد السؤال:

مش سنة تسعين برضه؟ ساعة ما عبد الغنى و البلانتِ فى «فان بروكلين» (حارس منتخب هولندا فى مونديال ١٩٩٠).

يهز رأسه بالإيجاب:

– آه. انت مذاكر بقى؟

– أصل احنا شعب بيسيب الحاضر والمستقبل ويتغنى بأمجاد الماضي، اللى هى فى الأصل مزيفة!!

حينها قرأ الخبير ملامح خالد ونبرته التى تغيرت إلى الحدة، وأدرك أن الشخص الذى يطويه أمامه وراء كوميديته المزيفة قد كشف عن نفسه، لهذا قال له:

– فاكر ياخالد لما قلت لك أنك بتعانى من مشكلة كبيرة أو فى حاجة بتطاردك؟

خالد: فاكر.

الخبير:

– أنا النهاردة قِبلت دعوتك للغدا وجيت عشان أعرف اهى المشكلة؟

خالد وهو يهزرأسه:

– يهمك تعرف؟

الخبير برد فيه إيحاء بالاهتمام البالغ:

– أكيد.

خالد بابتسامة باهتة:

– (أكيد) قلبك جامد؟

يشدد من قبضته علامة لقوة قلبه

يقشعر وجهه ويصيبه الذهول بعدما رفع خالد سترته عن ظهره وعراه، كشف عما يخفيه وراء كوميديا مزيفة، حفر سوداء، مناطق لجلد ميت، صاعقات كهربائية تبدت نتوءات سوداء، أثار للسعات نارية شوهت ملامح الجلد فأصبح يشبه ظهره أديم الجمل الأجرب، فضلاً عن الآثار التى تدل على الجروحات والقطع فى أنحاء الجسد، بدا الجسد كأنه ناجٍ من نهش مخالب ذئاب ثم طيبت جروحه فى الزيت والنار.

سأله:

– من إيه دا يا خالد؟

– من لعبى فى الشارع وأنا صغير.

لم يألف جليسه الرد الساخر ونظر إليه كله، خالد يهش قطته حين حاولت القفز على الأريكة بجواره بعدما أسدل لباسه على جسده وقال:

– دا يا دكتور لأنى كنت باقول عايز أعيش بلد حرة مافهاش ظلم، دا لأنى كنت باقول: عايزين يحكمها العدل، عايزين دولة يحكمها القانون، عايزن دولة تحقق المساواة، دولة فيها تعليم، دولة ما يحكماش عصابة ويتحكموا فيها أفراد من الجنرالات يتحكمون فى قوت تسعين مليون، دا لأنى كنت من الأقلية الشاردة عن القطيع اللى بيساق بعصاية الراعى، دا لأنى كنت باحلم ثم أشار إلى جليسه وأردف بنبرة تغير لحدة غير مقصودة:

– إياك تحلم فى البلد دىَّ؛ لو حلمت هتصحى على كوابيس.

– ياااآه و للدرجة أنت يائس!!

– احنا شوفنا فيها غير اليأس؟

– بس لازم نتمسك بالأمل ولا نسلم نفسنا للجزع.

ثم أخذت نبرته فى الحدة وجرى الدم فى عروق وجه، كأنه عرابى يخطب للثوار: أتمسك بالأمل حتى لو أمل ضعيف، عمر الهروب ما كان حل، ما تقلش من قدراتك فى تحسين واقعك وتغير حياتك. شوف فين طاقة النور وبص منها، أنت ليه مانتش شايف غير العتمة والسواد؟! دور يا خالد، على نفسك هنا، فين الوطنية وحب البلد؟

يرد بتصعب ونبرة أسفة:

– مش لاقى أى مخرج ولاحل تانى، يئست يئست، فين الأمل اللى حضرتك بتتكلّم عليه؟ مش موجود أصلا، مافيش أمل فى بلد عششت الدبابير فى كل حتى فيها!! والوطنية ما بتأكلش عيش حاف، أنا كفرت بيها ! أنت عارف كل شباب مصر ما بيحسش بالوطنية غير على القهاوى أو المدرجات لما مصر بتفوز على الكاميرون أوغانا ويسمعوا أغنية سفيرة الوحدة العربية نانسى عجرم (والله عملوها الرجالة)، شعور وإحساس بالوطنية مؤقت والله لو سألتهم تحبوا تهاجروا وهموا بيغنوا ليقولوا لك: من دى الوقتِ، وطنية إيه ! ومستقبل إيه فى البلد دىَّ!

– ولو. ازرع أنت الأمل فى صحراء اليأس، ولو هتهرب أهرب، أهرب بجد، بس من أفكارك السلبية، أهرب من سجن اليأس

– الحيآه هنا خلاص، خلاص ما بقتش للى زينا، مش هنقدر عليها؛ العتاولة اللى معاهم الفلوس وبيلعبوا بالسلطة هما اللى بيتحكموا دى الوقتِ، وكل حاجة بالفلوس – زمن الرق رجع – ويتبيع نفسك وتعيش فى عش الدبابير لا مؤخذة مقّرص – بالعين مش بالقاف – وتسير مع القطيع بالعصاية، لتعارض ومصيرك مستنيك، وفى بلدك السجون أكتر منها مافيش!!.

كلمة « لأ» جريمة بيعاقب عليها القانون المصري، حتى لو بتقولها للشيطان أنت مجرم؛ لأن الدبابير مع الشيطان وبيأيدوه!

– وأنت يا خالد شايف الأمل فين؟

يرد والأسى يطغى على نبرته:

– هو اللى يفقد الأمل فى وطنه ممكن يلاقيه فى مكان تانى!

– طب ما أنت عارف أهو حقيقة الأمر وإن الوطن هو الأمل

خالد يثنى رأسه خلفاً ويرد حاكيًا:

– كان لى صديق صعيدى كان متغرب عشان لقمة العيش، وفى يوم كان عايز يهاجر زيى كدا، قلته يا صاحبى دا خطر الهجرة بالطريقة ده، رد وقال لى:

– الموت ياواد عمى لو بيجرى وراك ماتستناش لما يلحقك، روح قابله ممكن تقدر تضربه قلم على وشه وتختارلك أنت موتة وتبقى موتَ بإرادتك، وأنا دى الوقت هاخد بكلام صديقى – الله يرحمه – على فكرة دا مات محروق وهو راجع بلده منيا الصعيد على العيد بعد غربة خمس سنين فى شوارع القاهرة.

– وليه يا خالد تختار الحل اللى شبح الموت مستنيك فيه.

يصرخ:

– لأن الوطن ما ساب ليناش حل تانى!! الموت بيجرى ورانا فى حياتنا كلها.

مطاردات أمنية واعتقالات وتعذيب، واستخفاف، وكبت للحرية، وتبديد للحقوق، وغلاء معيشة، واطضهاد، و..و. احنا كلاب فى لعبة السيجا اللى طرف لعبتها عمالقة المال وجنرالات السلطة بيلعبوا بيننا وبيضحوا بأى كلب بيشفوا مكسبهم فى موته.

دا كلـه مـش مـوت؟ مـوت بـس بالبطـئ. يبقـى أنـا اللـى اختـار موتـى ويبقـى مـرة حسـيت بحريتـى ولا اسـتنى لمـا أمـوت مسـجون مـن التعذيـب، ولا أمـوت مـن الجـوع والقهـر؟

حضرتـك تقـولى أنـت فـى مجالـك اللـى المفـروض بتوعّـى النـاس وتحثهـم علـى النجـاح وتثقيفهـم، تقـدر فـى الزمـن دا تتكلـم عـن منظومـة الفسـاد اللـى سـيطرت حتـى علـى أمـام الجامـع؟

أراد جليسه أن يرد فغالبه خالد وهز رأسه قائلا:

– مـا اظنـش! فيـه توابيـت ممنـوع عندكـم انكـم تفتحوهـا، يبقـى بـلاش نتكلـم عـن الأمـل واحنـا شـايفين أننـا فـى سـجن حكمنـا مـن سـتين سـنة أنتـم توعّـوا وهمـا يغيبـوا، طبعًـا وهمـا الأغلـب!!

رد خالـد أخمـد حمـاس جليسـه (خبـير التنميـة البشـرية) فـى الـرد فأخـذ يرتشـف مشـروب العصـير وكاد يغـص بـه مـن كلام خالـد الـذى بـدا كقذائـف لا يمكـن ردهـا.

* * *

«فتحت ملف الصور فتصلبت عيناها من فظاعة المشاهد فى الصور».

(ضحية قضية ٥)

بعد رحيل أحمد بشهرين أخذت تجر قدميها اللتين أثقلهما الاعتكاف فى المنزل – حزنا على رحيل أحمد – إلى شرفة حجرتها التى تشرق على مغرب الشمس، أعتادت رجاء هذه الجلسة فى ذلك الحين من الوقت– وقت الغروب – منذ رحيل أحمد، تأخذ مقعدها وتجلس واضعة خدها الأيمن على يدها، تنظر فى قرص الشمس الذى يبدد صفحة السماء بأشعته القزحية. رجاء ترسم فى صورة الغروب صورة لوداع أحمد فتنسكب دموعها كلما ابتعدت الشمس وتلاشت خلف أبنية المنازل المتابينة الأطوال حتى يؤذن المغرب، فتمسح دمعها وتغلق باب شرفتها. وفى يوم كانت تمارس تلك الطقوسات انتهز فرصة خروجها للشرفة ونظر إلى هاتفها نظرة الليث لفريسته، انقض على الهاتف واختلسه بيديه الغليظتين من على الكومدينو، بأناملة الرعاشة – التى تقطع وتلف فى شاش حرير – مارس هوية العبث التى جلب عليها، ومسح كل بيانات وذاكرة هاتفها، لم ينج ملف واحد من عملية المسح، حتى أفرغ كل ذاكرة الموبايل – فلتصرخى يارجاء على ما أصاب هاتفك – تلمح رجاء أخاه العابث وفى يديه هاتفها فتثب إليه فزعا على الهاتف. وما أن يراها الصبى العابث فيرمى بالهاتف ويفر هاربًا للخروج. تمسك هيكل هاتفها وتتفقد ما فعله به فتنهار

باكية، بعدما رأت الذاكرة خالية من كل شئ، بكت وذرفت دموعًا غزيرة؛ لأن صور أحمد مسحت، خرّت على فراشها هامدة تثقلها الأحزان والدموع الجافة، تعاتب نفسها وتلومها، ظنت بنفسها أنها قصّرت فى المحافظة على ما تبقى من أثر الحبيب الراحل.

وبعدما باتت ليلتها فى أنس الحسرة وشعور التقصير لفقد الصور، فى ظهر اليوم التالى أجرت اتصالاً لأخت حبيبها الراحل وقصت عليها ما حدث؛ لعلها تنديها بقطرة أمل تمسح بها دموع الحسرة، طمأنتها أخت أحمد وقالت:

– ماتزعليش يا رجاء، أحمد عنده الملفات كلها على اللاب توب وبإذن الله تلاقى الصور عليه، سألتها رجاء بنبرة الأمل:

– اللاب فين؟

ردت وهى تحاول سد نبع دمع يود أن يسيل:

– الله يسامحك يا رجاء، هتقلبى المواجع على ماما، بعد موت أحمد جمعت كل حجاته (الكاميرى والتليفون، واللاب توب) وحفظتهم فى الدولاب وقفلته عليهم .

– أنا هاروح بكرة أزور «تانت» وأطلب منها أشوف الحاجات دى ويارب ألاقى الصور، هاموت لو مالقتش الصور يا سماح، مش هاسامح نفسى، لترد سماح في لطف: ربنا يطول فى عمرك، احنا بنشوف أحمد فيك ثم غلبهما طوفان الدموع، لم تنتظر رجاء وهمّت فى ليلتها بزيارة أم الفقيد، تستقبلها الأم الثكلى بترحيب آسى وتتعانق الأحضان بحزنٍ حار وتنسجم دموع الثكلى مع دموع المتأرملة بحدادها على الحبيب، وبعد تبادل سلامات

محزونة وطمأنات مكلومة، عادت إليها رجاء وطلبت منها أن ترى حاجيات أحمد، فلم تمانع الأم وأخذت بيد رجاء وصحبتها إلى داخل غرفة أحمد التى أغلقت بابها فلم تفتحه لأحد سوى هذه المرة لرجاء، دخلتا غرفة أحمد فتغيب رجاء عن واقعها وتذهب بصورة أحمد المعلقة على الحائط التى يظهر فيها على رمل الشاطيء وهو يقلد اللاعب أبو تريكة فى حركته، بعد تسجيل الهدف (يطير مثل الحمامة) تذكرت رجاء وقت ما حكى لها عن تلك الرحلة وفرّجها على صوره فيها، رأت، سمعت، شمت.

رأت صورته وهو يجلس فى بيتهم بين العائلة ويريها صوره، سمعت صوته وهو يبادلها الضحك، اشتمت رائحته التى تعبق بها حينها؛ فداعبتها الابتسامة المفتورة بالدموع وعادت لحجرة أحمد بعدما نادت عليها أم فقيدها وأخرجت لها حقيبته من الدولاب: خدى يا بنتى افتحى الشنطة فيها كل حاجة لأحمد.

رجاء فتحت بطن الحقيبة وفرّغت أحشاءها، فوجدت اللاب توب، وهاتفه الجوال، وساعة اليد، وكاب وقميص مخضب بدماءٍ جفت على خيوطه. امسكت رجاء بالقميص اشتمته، وحملقت فيه بعينيها الذابلتين، ثم احتضنته ولم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء، ربتت الأم الثكلى على رأسها واحتضنتها وأخذت تهدئ من عويلها ونواحها المنهوك، وبصوت مبحوح:

– خلاص يا رجاء، خلاص يا بنتي، أهدئى يا حبيبتي.

ورجاء فى غيبوبة الإجهاش، أنا مش حمل تعب، اللى فىَّ مكفيني، وحدى الله يابنتى.

رجـاء عندمـا وحـدت اللّه وسـكت عنهـا نواحهـا وهـدأ عويلهـا، أسـتأذنت أم الفقيـد أن تأخـذ (الـلاب تـوب) فوافقـت وأوصتهـا بالمحافظـة عليـه قالـت:

– خديـه يـا رجـاء، انـتِ الوحيـدة اللـى ماقـدرش أمنـع عنهـا حاجـة عشـان أحمـد.

وقبل أن تخرج رجاء لتؤوب لبيتها:

– خلينى أشوفك يارجاء تعالى اقعد معاكى.

– ماشى يا ماما.

قبلت رأسها وغادرت.

عـادت رجـاء إلى بيتهـا وأسـرعت إلى غرفتهـا وأغلقـت علـى نفسـها بـاب الغرفـة فتحـت جهـاز الـلاب تـوب رسـالة ترحيـب الوينـدوز رجـاء تسـتعجل جهـاز المعالجـة، فتحـت ملفـات الجهـاز تبحـث عـن أملهـا، الصـور التـى تجمعهـا بأحمـد، بعـد فحـص لملفـات الجهـاز عثـرت علـى ملـف الصـور فتحتـه فقطعـت بسـمتها حزنهـا الطاغـى وقالـت: الحمـدللّه وأخـذت أنفاسـها تهـدأ بعدمـا رأت ملـف صـور مكتوبـا عليـه صـورى ورجـاء، رجـاء تنظـر فـى الصـور بـل تتأمـل فيهـا صـورة صـورة كأنهـا لم ترهـا مـن قبـل، صـورة تجمعهمـا وهمـا فـى حديقـة الحيـوان. صورتهـا وهـى تمطـى الخيـل وأحمـد بجوارهـا علـى حصـان أبيض..تشـرم الأبتسـامة لثامَـا فيـه رجـاء المحزونـة عندمـا تـرى صورتهـا وأحمـد وهمـا يلعبـان، يركضـان وراء بعضهم..يشـاغبان بعضهمـا. اسـتحضرت كل مشـاهد الصـور كمـا اسـتحضرت فقيدهـا فيغشـاها البـكاء واغرورقـت عيناهـا ويكسـو وجنتيهـا النحيـب بجـداول

دمعها، انكفأت على فراشها من شدة البكاء والنحيب ثم هدأت واستأنفت عرض الصور حتى داهمها النعاس فنامت ليلتها.

ظلت رجاء طيلة شهور تشاهد صورها مع حبيبها الراحل حتى نضبت وجفت ينابيع دموعها، وذات ليلة أخذت تعرض باقى الملفات الموجودة على جهاز الكمبيوتر المحمول استئناسًا بكل ما يمت لفقيده، فوقع نظرها وهى تجول فى عالم جهاز (اللاب توب) على ملف صور أخفاه أحمد داخل ملفات متداخلة، فتحت ملف الصور فتصلبت عيناها من فظاعة المشاهد فى الصور، رأت شخصًا جالسا وسط اللهيب والحريق يرتدى قبعة خضراء (خوذة) يحتضن آخر ملطخًا بدمائه، وفى صورة أخرى أربعة يحملون مصابًا بدا عليه أن الرصاصة النارية أفرغت مخه من رأسه. ضيقت رجاء على عينها ثم أعادت النظر وحملقت، وشيخ لحيته بيضاء التقط أنفاسه وهو رافع سبابته، وحريق يلتهم فى جثث مكفنة كأنها حطب أُلقى فى خضم الحريق..تصعبت رجاء واقشعر بدنه المثقل بالأحزان بعدما رأت جثثا مسجاة متراكمة كذبائح الفدا ولم يكفِ هذا بل تجرف وتلقى فى الحريق، لافتة مكتوب عليها المستشفى الميدانى تأكل منها النار وحولها شخوص تنزف. تصرخ رجاء بعدما رأت صورة لمقتولة برصاصة فى رأسها، تأملتها وعرفت أنها كانت زميلة لها فى الكلية، وكانت تحث رجاء على الأنشطة داخل الأسرة فى الكلية. نار وحريق، وقتل وترهيب. ألسنة دخان تحيط بمصابين وشهداء، حالة من الهلع والذعر يصخب بها صمت الصور بدت المشاهد وكأنها فيلم رعب أخرجه (**Tope Hooper**) ليحوذ به على الأوسكار.

رجـاء بعدمـا شـاهدت الصـورة التـى رأتهـا فـى جهـاز حبيبهـا الراحـل تأزمـت نفسـيًا وبـدأ يداهمهـا شـعور الجفـاء والجحـد لوطنهـا التـى تعيـش فيـه بعدمـا تقصّـت بنفسـه عمـا رأتـه مـن مشـاهد الصـور ليجتمـع فـى قلـب رجـاء، تلـك الفتـاة العـذراء التـى أرادت أن تعيـش فـى خـدر الـبراءة والحـب، بُدلـت حياتهـا إلى صدمـات فاجعـة وموجعـة بـدأت بمـوت حبيبهـا ومداهمـة الأمـن لهـا مـن حـين لآخـر بعدمـا تسـربت أخبارهـا إلى سـجلاتهم الأمنيـة بعدمـا تبنـت رجـاء الدفـاع عـن قضيـة رأتهـا جديـرة بالتبنـى، والدفـاع عنهـا شـرف – بـل واجـب – لـكل حـر يؤمـن برسـالة الحـق والعـدل ولا يضيـره عواقـب أو مخـاوف تهـدده. إنهـا رجـاء البتـول البريئـة تتحـول – بخلسـة قـدر– مـن عـالم الهـدوء إلى عـالم الهيـاج، كانـت مقصـورة فـى خيـام الحـدود والـبراءة التـى فُطـرت وجبلـت عليهـا وتربـت وعاشـت بهـا حتـى بدلـت حياتهـا – كليـةً – إلى صـراع مـع الأقـدار المتلاحقـة عليهـا وعلـى أسـرتها، بـل علـى شـعب بأكملـه مـن أمثـال رجـاء. فلـم تكـن الـبراءة حجابًـا دون اللعنـات التـى لمـت بمـن هـم أهلهـا.

تحولـت حيـاة رجـاء وتبدلـت، أيمـا تبـدل .. ! شـأنها شـأن وطنها المتخـم باسـرار العجـب فـى أحوالـه التـى يشـيب لهـا الرضيـع وتخـر مـن هولهـا الجبـال. وحسـبك أن تـرى حيـاة رجـاء رمزيـة لحيـاة لهـذا الشـعب فـى السـنوات إلى أعقبـت الثـورة. سـنوات يذكرها غـدُّ التاريخ– إن شـاء هـذا الشـعب أن يكـون لـه مسـتقبل – بسـنوات الظـلام.

سـنوات ظـلام.. سـنوات تلعثـم فيهـا لسـان الثـورة عـن النطـق بمـا هتـف بـه شـباب قدمـوا أرواحهـم قرابـين لآلهـة الحريـة ,فنكصـت هـذا الآلهـة عهـود الشـباب وجففـت دماؤهـم سـدى.

وذات مرة فى الذكرى الرابعة لما يسمى بالثورة- وما هى بثورة ولكن الشعب عبيط - خرج جمع من بقايا الأحرار يصرخون بحناجر الحماس الثورى الذى قابله خصمهم المتربص بهم - مذ ستين عاما - بما أوتى من قوة وبطش.

صيحات الهتافات كأزئير الأسود فى خضم الهياج ,يقابله تأهبات جحافل عاتية معتوهة من الأمن المركزى وملشيات الجيش ومرتزقة الشوارع، يترصدون ويطوقون شارع الدقى والشوارع الجانبية له. هذا الشارع الذى شهد على مذبحة لأنصار الثورة الذين تيمموا ميدان التحرير من بوابته لكن مرتزقة البلطجة ومعهم جنود الجيش والشرطة آبوا إلا الانتقام من الثوار قبل أن يصلوا إلى الميدان المشهود.

سقطت عشرات الجثث مضرجة بدمائهم كأسراب طير لم ترأف به يد القنص.

جثث الشهداء المتناثرة.. والأشلاء المبتورة .. والدماء المسفوحة فى هذا اليوم لم ترِ ظمأ الخصم المتربص بالثورة، فراح يرسل جنوده يطاردون ما نجى من حصاد الموت.

فى قسم شرطة الدقى زج عشرات المقبوض عليهم مكبلين الأيادى ومعصوبين الأعين ..

كواهل وأطفال .. ، رجال ونساء..

لافرق بين صغير أوكبير، بين رجل وامرأة، الكل فى قبضة الأمن متساوٍ فى البطش والتعذيب.

لارحمة لشيخ أو صبى!.. لا رفقة بإمرأة أو فتاة ..

شـهدت بـأم عينهـا – لأول مـرة فـى حياتهـا – مشـاهد لم تقـرأ عنهـا فـى الروايـات البوليسـة ولا فـى قصـص الرعـب الخيـالى.

رأت وشـهدت – بعدمـا نـزع عـن عينيهـا عصابهـا– مـا تسـتحى الفاجـرة مـن حكيـه فـى مسـامرة الفسـاق.

رجال تخدش كرامتهم .. ونساء يغتصبن.. وبنات تسلب عذريتهن..

أنين رجال.. وصراخ نساء.. وبكاء وعويل!!

سـاحة القسـم اسـتحالت مسـرحًا لجريمـة شـنعاء لا يشـتبه بهـا فـى محاكـم التفتيـش ولا سـجون النازية!

ومـا أن يـزج بالمقبـوض عليهم فى سـاحة القسـم وطفق الجنـود وأمناء الشـرطة ينهالـون عليهـم بالضـرب لكمًا، وركلًا، ووكـزًا ووخزًا، بالعصى المدببـة والسـياط اللاسـعة، ومـن ثـم تجريدهـم مـن ملابسـهم دون مراعاة لحرمة الجسـد، رجالاً ونسـاء. وممارسة العنف الجسـدى والمعنوى معهم

شـاهدت بـأم عينهـا لم تقـرأ عنـه فـى الروايـات، ولم تشـاهده فـى أفـلام الرعـب، ولم تسـمع عنـه فـى قصـص الخيـال.

انعطف القدر بحياتها إلى هذا العالم الخفي المرعب ..

حـادت بهـا الحيـاة عـن سـتر كل مـا هـو مكشـوف إلى كشـف كل ماهـو مسـتور

العفة أمام عينها تخترق ..

شـاهدت هـذا وهـى مطروحـة علـى ظهرهـا أرضًـا واثنـان مـن عتـاة الأمـن يمسـكان أطرافهـا يحـاولان إخمـاد مقاومتهـا المنهوكـة ليتسـنى

لكبيرهم نخرالفتاة والارتواء من نخبها العذرى.

ومثلها مثل بنات كثر في هذا الوطن العاق فقدن أغلى ما تملك الفتاة أو المرأة.. !

ركنت إلى البكاء الذى أعقبه صمت وذهول فترة حبسها التى زادت عن الشهر، خرجت من الحبس بعدما فقدت نضارتها!

فقدت بكارتها..

فقدت بسمتها البريئة ونظرتها الجريئة!

فقدت نفسها ..

بعدما فقدت عُذريتها!! أى حياة استحالت إليها مقاديرها!

هل هذا كابوس جثم على منامها فلم تفق منه بعد؟ أم أن هذه تهيؤات من فعل سحر أو عمل؟

لا هذا ولا ذاك، إنه الواقع الأليم والحقيقة المفجعة!!

آسرها الصمت والذهول، وظلت ساهمة، واجمة، راغبة عن الحياة الطبيعية، ترمش بعينيها اللتين كحلهما الحزن ورسم لحظهن السواد.

أين رجاء التى قصرت فى خيام الالتزام والتستر؟

أين رجاء التى لم يمس طهرها دنس ولم يقربها نجس؟

صارت الحسناء البيضاء ذات البهجة الأنثوية دمية صماء.. كيانًا مهدما..

وأى انكسار قد يصعب على المرء أن يجبره؟

إنه الانكسار الذى يترك آثارًا لا يمحها زمن ولا تُنسيها أحداث، إنها العاهة النفسية التى لا يعالجها طبٌ ولا يشفيها دواء!

وأى خبيرٍ قد يعيد لؤلؤةً من الماس إلى هيئتها الطبيعية إذ انصدعت أو انشطرت؟

باتت حبيسة الحزن، أسيرة العزلة والصمت. حتى صرخت ذات مرة صرخةً تصدعت لها جنبات البيت، وانفطر لها قلب أمها، وهرع إليها أبوها متعثرًا فى مخاوفه عليها. أخذت أمها تهدأ من بكائها الذى عقب صرختها، عاجزة حيال أمرها. تبكى ليل نهار لما حل بابنتها. زهرة حياتها ذبلت وذهب عطرها. الوردة التى قطف عبقها من سينظر لها أو يستأنس بها سوى متعاطفٍ أو مجامل لحالتها ولسان حالها : آه رباه!

– اهدى يا بنتي، اهدى يا حبيبتى (وهى تربت على كتفها وتمسح على شعرها).

وأبوها الذى مسه الكبر مبكرًا لما أصاب ابنته، والذى لطالما نهاها عن السير فى المسيرات محذرًا إياها من بطش الأمن وجبروته، بدوره يذكرها بالمبتليات الصالحات أمثال: أم عمار الصحابى ورابعة العدوية المرأة الصالحة.

وتمر الأيام وتمضى الشهور وتتعاقب الشمس والقمر دونما شعور أو إحساس بالأيام. وما فتئت ساهمة ذاهلة فى ملكوت صمتها، ينتابها البكاء وتأخذها الصرخات من حين لآخر، حتى مضت ستة أشهر على هذه الحال قبل أن تنسحب ببطء من تحت وطأة

الحـزن والسـهوم، كجنـدى مجـرد مـن ملابسـه يتسـلل مـن تحـت الأسـلاك الشـائكة زحفًـا علـى بطنـه فتـترك آثـارًا علـى جسـده.

علـى مضـض قاومـت جزعًـا ويأسًـا سـباها طيلـة تلـك المـدة، وكأن رجـاء سـنت تلـك الفـترة حـدادًا لمـن **قُتلـت عذريتهـا**، وإن كان العمـر لايكفـي، هـذا أكـبر ظنهـا.

كانـت القـراءة وصفحـات الكتـب هـى الملجـأ لهـا، تخفـف مـن صدمتهـا وتلهـى نفسـها عـن الحـزن. وبدرهـا أمها شـجعتها علـى ذلك.

«القـراءة نـوع رخيـص مـن المخـدرات، لا أفعـل بهـا شـيئا سـوى الغيـاب عـن الوعـى» أحمـد خالـد توفيـق .

وكأن رجـاء أمنـت بهـذه المقولة وصدقتها فغابـت فى صفحات الكتب شـيئًا فشـيئا، فخـف السـواد مـن تحـت عينيهـا؛ فانبسـطت أسـارير أمهـا وذات مـرة نظـرت إليـه نظـرة إشـفاق وقالـت : مـا شـاء الله أيـوة كدا يا رجاء، النهاردة أحسـن، هاقوم اعمل شـوية شـاي نشـربهم سـوا

فنظـرت لهـا رجـاء نظـرة رفـض، لكـن أمهـا تيممـت المطبـخ وأتـت بقدحـى شـاى: ربنـا يصلـح حالـك يابنـتي. وهـى تنظـر لهـا، مطولـة النظـر وهـى تنسـحب للداخـل.

هل تريد رجاء أن تطوى صفحة الماضى القريب

ماضى الكارثة.. ماضى الكابوس.. ماضى اللعنة..

الماضـى المرعـب المخيـف، الماضـى الـذى نـزع عـن الوطـن لباسـه ليوريهـا سـوءته ؟

وهـل لاذت بالقـراءة عـزاءً وصـبرا، أم أتخذتهـا مهربًـا وهجـرا؟ أم تـزداد مـن زاد الثقافـة والوعـي..

وأى وعى هذا .. ؟

وأى قراءة تجدى!..

وأى ثقافة تنفع!..

أو ليس الوعى فى هذا الوطن ضرب من السذاجة؟

شىء من الخبل؟

(لأنـك كلـما زاد فمهـك ووعيـك فى هـذا الوطـن مـت قهـرًا وحـسرة عـلى عـلى مـا نحـن فيـه).

ألم يقل المثل الشعبي: «المجانين فى نعيم»

نعـم، فالغيـاب وعـدم الإدراك للواقـع – إن كان أسـودًا مظلمـا، لا متنفـس فيـه لبصيـص النـور – خـير مـن وعـى مضـر بسـلامة المـرء.

فليتنا كنا فى نعيم؛ ولانعي واقع هذا الوطن !

تسـربلت رجـاء بأغلفـة الكتـب ووسـاوس الخـلاص والهـروب تجيـش فـى سـراديب رأسـها. عكفـت تقـرأ .. وتقـرأ ..

سـرداب ضيـق، قـاتم، تحـاول الخـروج منـه وعلّهـا تبحـث عـن الحـل فـى صفحـات الكتـب؟

* * *

أشباه أحياء (الفقر ١١)

نشوة الفرح والسرور تكاد تحول قدميه إلى جناحين ليطيرَ بهما من على الأرض – فما أفرحه الساعة وما أسره – يبدو أن السماء فتحت أبوابها لدعوات أمه.

أُستجيب للدعاء.. جاء **الفرج** وأخوته .. هلّت سوابق **الحل**

فقد **عثر** نبيل على الشخص الذى يبحث عنه ، يقرضه المال بالفائدة. نبيل يحاول جاهدا تجميع مال السفر بكل الوسائل ولذلك لجأ لهذا **الحل**.

يقف نبيل على حافة طريق الأتوستراد فى نزلة كوبرى منشية ناصر؛ ينتظر حافلة النقل العام– أتوبيس ٦٩ المتجه إلى العباسية، فرغم أن نبيل مستعجل لقاءه مع من سيرتهن بيتهم، إلا أنه مجبر على انتظار الأتوبيس، يقف منتظرا كأنه يقف على جمرٍ ملتهب، باطن قدميه تستكنفان تراب الطريق من الاستعجال، لكنه مجبر؛ لأنه لايملك من النقود سوى حق تذكرة الأتوبيس العام، لا تساعده حالته الاقتصادية أن تأخذه الوجاهة أن يستقل المكروباص فضلا عن التاكسي.

ينتظر وهو ينظر ناحية اليسار تجاه قدوم السيارات، يشد بعينيه كل حافلة نقل عام أملا أن تكون أتوبيس «٦٩» محل انتظاره.

نبيل يوزع نظرات عينيه مرةً بين السيارات، ومرةً على الورقة التى يقبض عليها بيده حرصًا عليها ، ورقة طال عليها الأمد فبهتت وكادت تتلف أو تأكلها القرضة، تحول لونها إلى الأصفر بعدما كانت بيضاء، وانمحت ملامح السطور المحبورة على الورقة . طواها نبيل فى كيس بلاستيك حتى لا تتأذى من باطن يده الخشنة، فكم يراها سبيلا لنجاته من الفقر، ولايدرى هذا المسكين أنها ستكون سببًا لمجهول مفزع له ولأمه هذه الورقة الملعونة.

ها، ها، حافلة آتية من بعيد، نبيل: يارب يكون أتوبيس العباسية.

تقترب الحافلة وتنزل بعضهم وتشحن آخرين. يضرب نبيل بقدميه الأرض؛ ليس أتوبيس العباسية!

تتوالى الحافلات التى لايرومها نبيل والانتظار يرهقه، أشتكت الأرض من ضربات قدم نبيل لها وأرّق من حوله من ذهابه وإيابه.

ها، ها. أربع حوافل متجهات إليه يأمل أن يكون أتوبيس منهم خط العباسية

أتوبيسات مصر تتغيب طويلاً لكنها تأتى جماعة

يترك نبيل أول الأربعة يمر، لم يستقله؛ لأن لونه أزرق، نبيل يتعظم على هذا أو يكره اللون الأزرق، علّة ذلك، لا نتهمه بمثل هذا، إنما الأتوبيسات ذات اللون أزرق أجرتها مضاعفة لأجرة الأتوبيسات ذات اللون الأحمر، الأخيرة أجرتها: جنيه مصرى

واحـد، والأولى بجنيهـين. معظـم الزرقـاء جديـدة لأنهـا دعـم مـن الإمـارات الشـقيقة لمصـر الحبيبـة جـاءت هـذه الحافـلات كالبطاطـين والملابـس المسـتعملة دعمـا للأخـيرة وتشـجيعًا مـن الأولى لمحاربـة الذبـاب المحتمـل (وعظيمـة يامصـر وقشـطة يانبيـل).

برتابة موظف نقل عام حريص على الأجرة، الكمسرى:

– يابرنـس اتقـدم لقـدام الأتوبيـس فاضـى مـن قـدام، أشـهر جملـة مكذوبـة فـى تاريـخ مصـر – الأتوبيـس فاضـى مـن قـدام – يحـاول نبيـل الوصـول لقـدام الفاضـى مـن بـين الثغـرات التـى يكتشـفها بـين أرجـل وأفخـاذ الـركاب المتكدسـين فـى الممـر، يتسـلل كمـا يتسـلل الجنـدى إلى الأسـلاك الشـائكة مـن الزحـام الركابـى.

– الأجرة.

نبيـل يـرد عليـه بجنيـه ورقـى مهـترئ عتيـق غـار عليـه الزمـن بنوائبـه ممتعضـا:

– إيه ياعم دا؟!

نبيل: جنيه.

– دا ورق، وملامحه اطمست شكلك بتحوش.

نبيـل يمسـك بالعارضـة الحديديـة المعلقـة بطـول الحافلـة وتشـرد نظـرات عينيـه مـن النافـذة لتسـبح فـى خيالـه الداهـم، تمـر حافلـة بجـوار الحافلـة التـى يسـتقلها نبيـل فتحـدث تيـارا هوائيـا لفـح وجـه نبيـل فيكشـف عـن ثغـره الـذى صـدأ، ابتسـم نبيـل بعدمـا أخـذه خيالـه لمشـهد طالمـا ينتظـره ومـن مثلـه فـى سـنه.

نبيل يستقبل التهانى والتبارك، أقارب وأحباب، وأصحاب وجيران جاءوا يفرحون معه، يمسك بيدها ويلبسها الفص الذهبى (الدبلة) يداعب بعضهما بالبسمات والهمسات، نبيل فى ليلة عرسه بعدما استقر به الحال ماديا وضحكت فى وجه الدنيا، نبيل يسمع بأذنيه أصوات التهانى ويشعر بالفرحة.

بصوته الخشن يُفيق نبيل من حلمه ويخرجه من هالة السعادة التى أحاطت به:

– إيه يابرنس احنا وصلنا المحطة!!

نبيل سيعاقب نفسه لأنه تركها تحلم، كان عليه أن ينزل من الحافلة قبل المحطة بمائتى متر، سيرجع ماشيا حتى يصل إلى ما ينبغى أن ينزل عنده، (قد لا يحق لك أن تحلم إذا كان واقعك مشغولا بالآلام والتحديات حتى لا تستيقظ على ألم آخر بسبب حلمك).

بعدما عاد نبيل المسافة التى خانه فيها حلمه سأل عن مكتب الأستاذ (عوض) الذى سيقرضه المال.

– بص يا كابتن: أنت هتسيب ناصيتين وتدخل أول شمال هتلاقى محل بقالة العمارة بقى اللى فى وشه.

نبيل مؤكدًا: اللى ف وشه؟

– يرد بثقة وتوكيد:

– آه.

نبيل أخذ بالتوجيه الجغرافى وترك الناصيتين لكنه لم يجد الشمال ورأى محالات بقالة كثيرة، وليس محلًا واحدة؛ فسأل آخر؟

فرد الآخر:

يا برنس أستاذ (عوض) مكتبه مش هنا، دا فى العتبة!

نبيل لم يقتنع بالرد وسأل آخر فآخر فآخر، وشمال ويمين، وراء وقدام، وهناك، بعدما جاب الشوراع يلف ويدور كالنحلة تزوم على خليتها وجد نفسه عند أول نقطة سأل فيها، وهو يلتفت وراءه وجد لافتة تطل من حائط الدور الثانى مكتوبا عليها مكتب الأستاذ عوض يصعد السلم ليجد نفسه فى مكتب الأستاذ عوض حجرة مفضوحة عورات بلاطها الباهت، وجدران جار عليها طول الأمد فأسود لونها بعدما كان أصفر، يتوسط الحجرة قطعة من الصاج مدعمة بأعمدة حديدية استوطنتها الأتربة والأوساخ من أمد، تستأنس بكرسى خشبى أعرج.

ينبثق منها ممر يبدو أنه يسلم على حجرة أخرى وحمام منحط هالك، يقف نبيل ويصدر نداءات: أستاذ عوض فيجيبه صدى صوته بالضاد المفخمة قبل أن يخرج إليه أستاذ عوض ممسكا بشئ فى يده.

– تعالى يانبيل أقعد أخرت ليه؟

نبيل يمسح تراب الكرسى الأعرج بمقعده: خد يا أستاذ .

يناوله «جحة البيت»، يتسلمها الأستاذ عوض بعين متفحصة:

– ياابنى دى مش باين فيها حاجة خالص ! على العموم هات صورة البطاقة وخد امضى هنا.

وأشار على ركن فى ورقة.

– (نبيل بخيلاء الجاهل) لأ، أنا بابصم، الأمر الذى وضع أستاذ عوض فى مأزق لأنه لم يكن عنده فى المكتب المهجور ختامه، مما دفعه لاستخدام عقله المصرى وأخذ ببنصر نبيل وبصَّمه بعدما أفرغ عليه حبر القلم الجاف وبصق عليه. (تصريف مصرى خالص).

– استنى يا نبيل هادخل أجيب لك الأمانة.

لم تمر الثلاث دقائق وعاد له بالأمانة. أخذ فى عد ورقها لنبيل. مائة ورقة يستقبلهم نبيل استقبال نادى الزمالك لدرع الدورى، فرح وسرور طاغي. نبيل يتسلم رزمة الدين الذى سيقصم كاهل امه بعد رحيله إلى المجهول، هرع فى حينها إلى الأستاذ (وليد) بعد محاضرة مملة من الأستاذ (عوض) كان فحواها:

أسمع يا نبيل يا بنى:

– أنا ياما ساعدت شباب زيك كدا كتير، باسلفهم الفلوس يعملوا مشاريع ويكسبوا، وشباب كانت عايزة تسافر زيك كدا، منهم يا نبيل اللى ربنا كرمه ووصل للبر ومنهم اللى ماوصلش وراح وأخد معاه الشر! نصيب يابني! كل شئ نصيب واستشهد بقوله تعالى: (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت)، وعلى فكرة أنا مش باتعامل بالربا لاسمح الله أنا بآخد نسبتى الحلال، عشرة فى المية لو كسبت، وخمسة فى المية لا قدر الله لا قدر الله لو خسرت وبينى وبينك الورق اتفقنا يا نبيل؟

– اتفقنا (بكل بهجة) اتفقنا.

كأنهما اتفقا على زواج ابنته البكر الرشيد التى يركض وراءها شباب الحى وقد حظى بها نبيل بعد مغازلة منه!!

سلطة المال

فى صالة أحد الحانات بشارع الهرم، أنفاسهم الكريهه المشوبة برائحة الخمر والدخان كانت تتبختر فى ساحتها وسط زحام من اللهو والرقص والسكر.

فى ركن خاص كان يجلس وأمامه منضدة تعج بزجاجات النبيذ والخمر، يتبادل الكلمات مع جليسه المنتفخ البنية، يرتدى جلبابًا حجازيا أبيض، معدته متهدلة على فخذيه، كلما يأتى يبعثر الدولارات على شعر الغانية، رغم أن عملته الريال.

أتدرون من ذلك ومن جليسه؟ إنه (قرنى) صاحب (اللبانة) وجليسه عربى أصيل أثرياء الخليج !

قرنى: سيبنى يومين ياباشا..هابسطك.

المنتفخ: إيش تعمل، أنت أخرك الشمال ياشمال ويضحك بصوته الفخم الممتلىء.

قرنى: ياباسا العبد ايى قدامك مخيص فى كُيه، هات بس حادة نسيك بيها العملية.

المنتفخ الخليجى يدس يده فى فتحة جلبابه الأبيض ويخرج رزمة من الدولارات يستل منها وريقات ويلقى بها، ويقول: خذ هذا ونشوف إيش تعمل؟ يشير بيده كأنه يهش ذبابة:

– يلا يلا عشان أعرف اتبسط،

ذهب سعيدًا بالدولارات.

* * *

فـى حـى الزبالـين (مدينـة القمامـة فـى مصـر) وسـط أبـراج القمامـة ثمـة شـئ غريـب علـى معـالم تلـك المدينـة يسـمى مقهـى، ولاضـيرَ فـى هـذا؛ فالمصريـون دائمـا مـا يحققـون المعـادلات الصعبـة.

وسـط القمامـة بروائحهـا الذكيـة التـى تنعـش النفـس الأخـير، ومناظرهـا الطبيعيـة التـى تـرد الـروح إلى خالقهـا، يعيـش أهـل الحـى يأكلـون ويشـربون وينامـون ويتناكحـون وينجبـون أجيـالاً تفخـر بهـم مشـفيات السـرطان وأبـو الريـش ومعاهـد الأورام!!

فـى ذالكـم المقهـى كان يقعـد علـى كرسـى خشـبى وأمامـه المنضـدة بجوارهـا الشيشـة (النارجيلـة) يشـهق مـن فمهـا ليزفـر سـحابة دخانية تزيـد مـن جـو المـكان فظاعـة حـين أتـاه نبيـل فرحـا مسـرورا.

– خـلاص ياأسـتاذ نبيـل، هنسـافر والدنيـا شـكلها هتلعـب معانـا وهنخـرج مـن أم الكهـف اللـى عايشـين فيهـا.

قالهـا وهـو بيخـرج الكيـس الـذى يضـع فيـه قـرض الهجرة (العشـرة آلاف جنيها).

– اقعد نبيل، إيه شكلها فرجت عليك ولا إيه؟

– أيوة والفلوس أهي، شوف لنا بقى الراجل اللى هيسفرنا.

يأخذ أستاذ (وليد) منه الورقات النقدية ويسأله:

– كام دول يا نبيل؟

يرد بأريحية خادعة:

– دول عششرتلاف ما ينقصوش ملين.

– يا بنى أنا مش قايل لك إنه طلب عشرين وأنا زقتهم شوية خلتهم خمستاشر عشان أنت حالتك هباب جاى دى الوقت ومعاك عشرة وفرحان قوى بيهم، أقول الراجل إيه؟ مش هينفع يا نبيل جهز كمان خمسة.

نبيل يحاول أستعطاف جليسه (الأستاذ وليد) بنبرة الشحاذ الذى يستوقفك فى الطريق يسألك الجنيه من أجل إنقاذ ولده فى غرفة العمليات، كأن أستاذ وليد هو من بيده الأمر.

– يا نبيل مش هينفع؛ المبلغ قليل مش هيوافق ماتحرجنيش مع الراجل. كان هذا ردا لإلحاحات نبيل المتكررة فى صيغة:

– بس اتصل عليه وشوفه هيقول لك إيه؟

ولم يهدأ نبيل فى إلحاحه المستمر حتى رضخ لمراده وأخرج هاتفه وأجرى اتصالاً، دقيقتين استهلهما أستاذ وليد ثم أخذ فى الاستماع بهز رأسه وانتهت المكالمة.

نبيل استجوبه قبل أن يضغط على الزر الأحمر فى الهاتف: إيه قال لك إيه؟

– قال لى:

الدولار غلى يا نبيل، كمل فلوسك وابقى كلمنى.

يعود نبيل إلى بيته حاملا خيبة أمله أو هكذا يشعر، يفكر نبيل فى حيلة أخرى يدبر بها أمر) خمسة آلاف) أخرى ليكمل تكلفة الهجرة، نبيل جعل الهجرة شغله الشاغل ولن يهدأ حتى يستقر به الأمر على ظهر المركب بهذا يحدث نفسه نبيل ليل نهار.

نبيل تفجرت فى داخله كل ينابيع الطاقة والحماس، ويعاود الكرة إلى العمل فى المعمار متسلحًا بسلاح الصبر والحلم معاً وهو فى انشغال فكرى وبدنى من أجل **حلم التغريبة** الذى هوسَ به واقعه اليائس

نبيل فعل كل الحيل، تصّبر وتحمل العمل الشاق، حرِم نفسه وأمه من إنفاق كانان بحاجة إليه، حاول الاقتراض فلم يجد من يقرضه .. أو بالأحرى لم يجد من يأمنه على قرضه ، ومنهم من إن تستقرضه دينارًا يقرضه لك ومنهم من إن تستقرضه درهم لا يقرضه لك .وكان قوم نبيل من النوع الأخير

لم يجد نبيل غير رهن الحجرتين اللتين تأويان جسد أمه المريض؛ هذا من أجل الوصول للمبلغ الذى سيدفع به إلى تاجر الأمل .. سفير النعيم الأروبي.. ليضعه فى قائمة المهاجرين إلى ضفاف اليورو الأوروبي؛ لينتشل شبابه المفتور من حضيض الفقر والفاقة إلى قمة العيش الرغد المأمول، بهذا يعتقد.. ولهذا يسعى.. يحاول .. لهذا يرهن مأوى أمه !.

نعم الألم قد يحرك الساكن، ويوقظ النائم، ويجعل العاجز يركض وراء حلمه، ما دام فى هذا الحلم الخلاص والأمل، ما دام فى هذا الحلم الشعور بالوجود، ما دام فى هذا الحلم **النجاة**.

التغريبة بالنسبة لنبيل – رغم مافيها من مخاطر– هى الطريق الوحيدة للعبور إلى الحياة الكريمة التى يأملها

هذا التفاؤل المفرط – والانصياع وراء تكهنات نفسية مغررة ,وراءها أقدار مجهولة –جعل من شخص بائس معدوم الحيوية،

مفقور البدنية، شخصا معاندا مثابرا، يصارع المتاعب والمصاعب؛ ليصل لمبتغاه المجهول

هل يسلك الإنسان طرقا وعرة دونها الموت من أجل حلمه؟

هل يبيع الإنسان أمانه المطوى بالضياع، من أجل راحة دونها المهالك؟

لا ينثنى نبيل وأمثاله من الشباب الذين سئموا الحياة بين أحضان وطن بائس عن أى سبيل قد يعفيهم من الجهاد الباطل لتلك الحياة الراقدة على أرض ذلك الوطن!

جاهد نبيل كل متاعبه ليكمل ثمن تكلفة الهجرة وعانى الكثير والكثير حتى اكتمل نصاب الهجرة وبدأ يهيئ أموره مع أمه ليعلن لها أمرًا بات محتوما..

أصبح مطلوبًا..

صار هو الحل ..!

كان جالسًا على كنبته التى تهالكت من جلسة نبيل عليها وأصبحت رثة وملجأ للبراغيث وقوافل الصراصير. أمه تبسط أرضية الحجرة المتعرجة – كعادتها– بين الكنبة العتيقة والسرير الهش الذى أصبحت مُلته الخشب أضعف من الورق الأصفر. فى حجرها قطع نقدية مبعثرة – لو وضعت فى راحة كف طفل رضيع ما ملأتها – هذا حصاد يومها وما أفاء الله عليها من تجارة حُزيمات الفجل والجرجير, بضاعتها المتكل عليها رزقها .

«يـلا الحمـد للّه علـى كل حـال» كانـت هـذا الجملـة التـى نطقـت بهـا تعبـيرا عـن قلـة دخلهـا وربحهـا هـذا اليـوم، قالتهـا وهـى تعـد وتحصـى النقـود القليلـة.

لا شـك أن تجـارة الحاجـة (أم نبيـل) تأثـرت بسـعر الـدولار العالمـى الـذى ارتفـع مؤخـرا ليحقـق رقمـا قياسـيًا فـى تاريخـه.

ولأننـا مـن الـدول الناميـة اقتصاديـة ونعتمـد فـى إنتاجنـا بنسـبة ٧٠ ٪ علـى الـواردات مـن الخـارج؛ فسـعر الـدولار يتحكـم فـى السـوق المصـري، فتـزداد الأسـعار بارتفـاع سـعر الـدولار. ورغـم أن تجـارة (الحاجـة أم نبيـل) تتمثـل فـى ٣٠٪ إلا أنهـا تأثرت هى الأخرى بسـعر الـدولار، وقلـت نسـبة المبيعـات لـدى الحاجـة أم نبيـل؛ ممـا دفـع أم نبيـل لتقليـل وارداتهـا مـن الفجـل والجرجـير ,وأوقفـت بيـع البصـل، وهـذا مـن الحلـول الاضطراريـة التـى يلجـأ لهـا متاجـرو المنتجـات الاسـتهلاكية التـى لا تقبـل التخزيـن. مـا علينـا مـن حركـة السـوق وعـالم الجرجـير نعـود لنبيـل حيـث أزعـن أن يخبرأمـه بأمـر السـفر.

– ياما أنا هسافر.

ردت أمه بنبرة كلها أسف وحزن بشفقة :

– إسـكندرية، وشـغل بالمـدة تانـى يانبيل! !يـا بنـى احنـا مـش حمـل مرمطـة، أنـت بتتعـب وبتتبهـدل وعافيتـك بيتشـتكى وانـا سـت مريضـة محتاجـة حـد جنـبي، (ثـم عقبـت بتصعـب) هـو أنـت صحيـح بتجيـب فـى الشـغل دا قـرش كويـس، بـس خلينـا كـدا أحسـن، وأهـى ماشـية ومسـتورة وربـك يـرزق.

كلام أمه الذى يبث الخوف والشفة عليه كاد أن يراجع لسانه عن إبداء ما يستره من أمر الهجرة لكنه عزم القول والبوح بالأمر.

– إسكندرية إيه ياما أنا هاسافر برة.

لملمت نقودها المبعثرة من حجرها وأودعتها الصّرة القماش وربطت عليها ثم قالت:

– برة فين يا ضنايا؟

رد نبيل وهو يهرش فى خده الأملس كيف له أن يعلن لها الأمر:

– برة البلد دى خالص!

وعلى خلاف المتوقع لحالها شرعت قائلةً :

– فين.. العراق من ساعة ما دخلوها اللى ما يسموا الأمريكان وموتوا الراجل الشهم وهى بقت خراب دمّروها يابني، ! وليبيا بيقّتلوا بعض بالسلاح والمصريين بيهجوا منها وبيرجعوا وأديك شوفت ولاد الحاج عاطف الاتنين رجعوا بعد غربة وبهدلة تلت سنين حافين ولا وارهم ولا قدامهم ورجعوا يشتغلوا أنفار من تاني! والخلايجة ماعدوش زى الأول والسفر لبلدهم بقى غالى، بس يابنى ربنا ينولها لك ويوسع رزقك ربك كبير يا نبيل.

قالت الأخيرة وهى تدس صرتها تحت الوسادة البالية.

نبيل كان شاردا فى خياله عن استطراد أمه للمنطقة العربية وأحوال الهجرة لها لكنه أجاب عن سؤالها المذكور أنفا:

– هاسافر أروبا.

لم يكن نبيل حدد قبلته بعد، فنصيحة الأستاذ وليد لم يقابله ليحدد له اتجاها بوصلته فى الهجرة المنتظرة.

وأنتهى الحديث مع أمه على غير ما كان يظن نبيل , أن تدرك أمه كيفية السفر لأروبا ,فضلاً أن تدرك أو تعرف ما هي أروبا ؟

بعد خمسة أيام.

لم يكن **حى الزبالين** أجمل منظرا مما سبق عندما قابل نبيل أستاذ (وليد) فى ساحته مذ شهور، بل ازداد ازدحامًا بواردات القمامة وأمتلأت الثغرات التى كانت فارغة حتى أصبح الحى مدينة لأكوام القمامة بأنواعها، على نفس القهوة الذى يتجرع زوارها الشاى المعبق بعطر المكان، تقابل نبيل مع الأستاذ (وليد) ثانيًا، لا بل ثالثا أو رابعاً. نبيل ما زال فى نشوة من أمر السفرالمحلوم.

– كام يا نبيل الفلوس كلها اللى معاك؟ بادره بهذا السؤال قبل الترحيب أستاذ وليد,ونبيل بلهجة مغرورمستوثق من أمره يرد:

– عشرين باكو ورق جديد والله الورقة تدبح الجمل.

– لأ، أنت كدا يا ياسطى ممدد على ضهر المركب تحت الشمسية كمان سيبنى اتصل على الريس اللى هيسفرك، وربنا يكرمك بقى وتسافر يا فقر.

نبيل باسطًا يده إلى السماء:

– يارب .

وشرع الأخير في محادثة أحدهم عبر جوّاله

ثم حديث بين الطرفين طال لمدة ثلاث دقائق ونبيل منتظر حتى أنتهي استاذ وليد من حديثه عبر الجوال واغلقه موجهًا كلامه لنبيل :

– بص يا نبيل الراجل قال لى: أن الدولار رفع وتكلفة الهجرة كمان رفعت، (وبفلسفة اعتراضية من الأستاذ وليد عقب) أنت عارف يا نبيل أن كل حاجة مرتبطة بالدولار، بس قعدت أكلمه يحاول يزجك فى السفرية الجاية وقلت له هتكسب فيه ثواب، فقال لى خلاص هيجى بالفلوس اللى معاه ويكتب وصل بالباقي، قلت إيه يا نبيل؟

نبيل وافق على شرط السمسار فاتصل الأستاذ (وليد) به ثانية ليحدد ميعاد سفر نبيل ومعه – طبعًا – التوقيع على إيصال الأمانة، عرف نبيل الميعاد فعاد لأمه وكله فرح وهناء، ابتسمت أساريره وابتهجت. رأى لأول مرة فى حياته البائسة شعاع نور يداعب ظلمة دنياه. فى تبختر مهزوز– شئ ما – وطأت أقدام نبيل أرض يابسه مخصبة بالأمل المنبوذ بأقدارٍ يشوبها الحسر والندم، لكن نبيل ينقل خطواته على هذه الأرض بلا أدنى تمهل أو ريب يجعله متفكرًا فيما سيؤول إليه قدره.

* * *

(ذكرى ٥)

بعد شهور من حكى أبيه لقصة (محمد) عاود محمود الزيارة لخاله وأخذ يستمع له عن أمر سفره لإيطاليا وما جناه من ثراء نعيم أوروبا، حكى له كيف أتته فكرة الهجرة والسفر للخارج ومساعدة ابن خاله فى تسهيل أمر الهجرة عبر البحر، ثم مسيرة الكفاح فى الخارج والعمل لجمع المال وأول ما جمعه من مال، والتنقل من مدينة لأخرى حتى استقر به الأمر العمل فى الميناء فى الشحن والتفريغ، ولأن محمود الفتى الذى لم يتجاوز السابعة عشرة يحب الإثارة فى الأحداث اقتنع بفكرة السفر والهجرة، خُيل لنفسه أنه يستطيع أن يخوض مثل هذه الإثارة ويصنع لذاته قصة تحكى مثل قصتى (محمد) و(خاله)، وفى أحد المرات بعد الفراغ من العمل فى مطعمهم طرح فكرة السفر لأبيه فلم يعبء والده بما تحدث به الفتى، لكن الفتى لم يقل عن مراوغة أبيه بالحديث عن السفر بعد الفراغ من العمل حتى رضح أبوه لنقاش الفكرة ووعده بالبت فى أمر السفر مع خاله وكيف له – أى محمود– أن يسافر؟ جاء هذا بعدما أتاه محمود بالأدلة على إمكانية سفره وذلك اقتداء بابن أحد أبناء بلدتهم الذى هاجر وهو يصغر محمود بعام واحد.

محمـود يتقمـص دور مخـبر الأمـن ويجمـع معلومـات عـن ذلـك الصبـى ويقصهـا علـى أبيهقصًّـا مُمـلا.. كلمـا اجتمـع بـه ليدعـم قناعـة أبيـه بفكـرة الهجـرة، وكلمـا قـص علـى أبيـه الحكايـات التـى يجمعها يلحـظ فـى عـين أبيـه الميـل للاسـتماع فيزيـد الحكـى حبكـة ويضيـف علـى الأخبارحشـوا كأنـه راوٍ يريـد أن يقنـع قارئيـه بمـا يحكـى، وكان يستشـهد بأخبـار ابـن بلدتـه الـذى يرفـع صـورة علـى الفيـس وهـو يعمـل فـى محـلات البيتـزا بإيطاليـا.

أشباه الأحياء (الفقر ١٢)

بعد شهر من لقائه الأخير فى حى الزبالين وهاتف الفرج – كما ظن نبيل – نبيل مع غروب الشمس كان يجمع ملابسه الرثة التى سيأخذها معه فى رحلته عبر البحر وأمه المريضة تساعده فى جمعها، نبيل يحتار فى اختيار ملابسه ليس لكثرتها وصعوبة الاختيار إنما لأنه لم يجد ملابس مناسبة للهجرة كلها بقايا ملابس مما أكلته الفئران أو نجى من عوامل الدهر

– ياما أنا هاخد فانلتين وشورت وخلاص الراجل قال لي: ما تكترش فى الملابس والشنطة تبقى خفيفة.

– يا بنى الجو برد وانت يا ضنايا ماشى ف بحر خد حتة القميص دىَّ تدفيك قميص بنصف كوم تغايرت عليه شتى أنواع الأزرار.

– لأ ياما كفاية كدا، خدى بالك من نفسك والعلاج ياما، وانا وصيت الأستاذ (وليد) هايشقر عليكى كل شوية.

– ما تعتلش همى يا بني، خد بالك أنت من نفسك ويا نبيل يا بنى مالكش دعوة بالخواجات بص لأكل عيشك.

وكأن نبيل روميو العرب تنتظره الخواجات بفارغ الصبر.

– ممكن تلاقى سمير اللى حكيت لك عنه قول له يرجع لأهله .

(الرحيل قاتل، لكنه أحيانا يكون أهون علينا من البقاء.. وإن كنا فى طريقه نتوقع الهلاك)

الهجرة

«فـى هـذه الرحلـة، رحلـة البحـث عـن الحيـاة الكريمـة على شـطآن جنـان العـالم المتقـدم لا نأمـل سـوى المـوت أو الهـلاك رفيقـا لرحلتنـا، ورغـم ذلـك لا نتراجـع ونهدهـد مخاوفنـا بآمـال خادعـة مزيفـة؛ لأننـا ارتضينـا أن لـو مِتنـا مـرة واحـدة بإرادتنـا خـير لنـا مـن أن نمـوت كل يـوم بـين أحضـان وطننـا التعـس. فالفقـرُ مـوت، والعـوز مـوت، والضعـفُ مـوت، والـذلُّ مـوت، والاضطهـادُ مـوت، والاسـتخفافُ بعقولنـا مـوت، وتضليلُنـا مـوت، وإسـكاتُنا مـوت، وتبديـدُ أموالنـا مـوت، وكبـتُ حريتنـا مـوت، ومـا هـذا الوطـن إلا رهـن مـوت!!».

خالد

وفى يوم جمع القدر بين أبيه وبين خال (الصبى محمود) فى بيت جده قبل أن يعاود الثانى الكرة إلى حيث كان مذ أشهر (فى ميلانو)، وبعد أن طعموا وشربوا أخذ أبو محمود خاله منتحيًا شرفة البيت وحدثه فى سفر محمود، الأمر الذى لم يكن غريبًا بالنسبة لخال محمود؛ لأنه يعلم بفتية يبكبرون محمود ويصغرونه سافروا إلى إيطاليا وحظوا بالرعاية من جانب الدولة تحت (قانون رعاية القصر) يتعلمون ويأكلون ويشربون ويعيشون فى مستوى معيشى راقٍ، فلم لا يكون محمود من هؤلاء؟ أليس خيرا له من قراطيس الطعمية التى لم تساعده فى إتمام تعليمه فزهد التعليم وراغ عنه إلى العمل فقرًا وحاجة !

كان هذا مجمل حوار خال محمود مع أبيه، اقتنع الأب بسفر ابنه وآملَ أن يرحمه من حرارة الزيت ووقفة المطعم وأنهى حواره مع خال الفتى:

– «خلاص على خيرة الله احنا هنفكروا فى الموضوع كويس» .

لم يمل أبو محمود إلا إلى التفكير فى أمر هجرة ابنه الذى لم يبلغ الثامنة عشر وتطورت أفكاره فى كيفية جمع المال الذى سيدفعه ثمنًا لرحلة ابنه عبر البحر– ليغتنم اليورو أو الدولارات من الفردوس الأوربي، ورغم رفض زوجه لفكرة الهجرة لفتاها خشية وقلقا عليه من أخطار الرحلة، لكن الأب بدوره السيادى فى الأسرة وصلاحياته الأبوية شرع فى ترتيب الأمور، فنظر فى التكلفة التى تبلغ الخمسة وعشرين ألف جنيه.

وبعد الدعبسة (التفتيش)والتدبير، واللف على الأقارب والجيران للاقتراض جمع (عشرة آلاف جنيه) ليتبقى خمسة عشرة ألفا، رجع للسمسار وفاوضه فى المبلغ المتبقى تخفيضًا أو تسهيلا، لكن السمسار ظل متمسكا بمبادئ المهنة قائلا:

– احنا مانقدروش نقول لك ابنك مش هيسافر، بس برضه لازم المبلغ كامل، دى أصول ومبادئ بتمشى على الكل، واحنا هنكون مجدع معاك جهزوا كمان خمسة وامضى على وصل بالباقي.

وافق أبو بمحمود بحل السمسار الذى رأى فيه فرصة لسفر محمود إلى أوربا بعدما أخبره السمسار أن هناك مركبا ستخوض عباب البحر بعد عشرة أيام.

أبو محمود ينبجس بكل حلوله ليجمع المبلغ المتبقى (الخمسة آلاف جنيه) فلم يجد سوى بيع قُرط زوجه التى تزين بها أذنيها، وساعده فى هذا ارتفاع سعر الذهب فقد بلغ الخمسمائة جنيها. اكتمل المبلغ فأبلغ السمسار واتفقا على ميعاد رحيل محمود.

* * *

نبيل يحمل حقيبته على كتفه ويودع أمه ويسلك طريقه إلى شارع الأتوستوراد وهو ينظر بتأفف لشارعهم الذى يزخر بمستنقعات الصرف الصحي. نبيل يعبره عبر جسور أنصاف الطوب التى شيّدها أهالى المنطقة – عفويا– حتى لا تتلوث أقدامهم وعراوى سراويلهم وجلابيبهم بمياه المستنقعات.

هى مواصلة من على ناصية الشارع إلى رمسيس الثاني، وسط البلد، الذى أصبح كوسط هيفاء من زحام الجمهورعليه.

خالد يجمع أشلاءه فى الحقيبة الرياضية، قميصان وسروال جيز وبعض من الملابس الداخلية، وصورة تجمعه بأخوته، وذكريات مبعثرة فى الذاكرة، هذا كل ما له فى هذا الوطن المطرود منه يأسا.

حمل حقيبته على كاهله، رغم أن الحقيبة خفيفة، شعر خالد بثقل كأنه يحمل جبلاً فى حقيبته، وحُق له ذلك الشعور؛ إنه حقا يحمل فى حقيبته أوجاعه ومآسيه، يحمل ماضيا موجعًا بذكريات جميلة، يحمل مستقبلا مجهولا يتصارع فى طياته الأمل مع الألم، نظراته تنسجم مع دموعه لتودع كل ركن فى شقته، كل ركن تقع عليه عيناه يودعه بمشهد من ذكرياته المتسربلة فى بهو شقته وحجرها؛ فتفيض دموعه أسفا. وها هو فى تراجيديا الوداع قبل أن يفتح مصرع الباب ليخرج، يقطف أنظاره مشهد هرته وصغارها وهى تركض وهم من ورائها يلعبون، رأى خالد، بل شعر بسعادة القطة وصغارها وهم يلعبون يشعرون شعور الخزى والأسف لو أنه، وما حق له ذلك التمنى !

فى هذا البلد يبدو أن السعادة فيه لغير الآدميين، هكذا باح إحساس خالد المتأزم بلكمات وطنه.

(الرحيل قاتل لكنه أحيانا يكون أهون من البقاء وإن كنا فى رحلته نتوقع الهلاك).

ينزل خالد ويمر على البريد ليدس فى فرجة صندوقه ورقة مطوية داخل مظروف، هى رسالة لكبرى أخواته، فحواها: أنه سافر وترك لها أمر الشقة تفعل ما تشاء بها ويبلغها وأبناءها السلام.

يمشى خالد وقبل أن يخرج من بلدته ويشرع فى سلك طريق الهجرة حبذا توديع صديق له طالما تصبّرا فى الشدائد والمحن، أخرج هاتفه وهاتفه، بعدما قطع ذبذبات الرنين الصوت: السلام عليكم

رد: وعليكم السلام يا شيخ محمود، أنت فين؟

الشيخ محمود بداعبة مقصودة:

– أقول لك وما تبلغش عني؟

خالد:

– أقول، سرك فى بير يا كبير.

– أكيد يا خالد ولا هتبيع صاحبك؟ بدأت أقلق منك.

خالد كعادته فى الهزل:

– خلص مش فاضى أحكى معاك، قول أنت فى البيت ولا زى المطاريد ولسه بتنام فى الغيط بين عيدان الدرة؟

– هات بس وأنت جاى حاجة نبل بيها رقنا، وخد بالك الأرض مسقية وانت جاى شمّر هدومك ما تهبطش زى العجل الغشيم، يلا بسرعة.

– يعنى يبن عيدان الدرة، (ثم ضاحكًا) من خيبيتكم هاتعيشوا مطاريد وهاتموتوا مطاريد!! سلام.

خالد يغير بوصلة سيره ويبتعد بخطواته عن المبانى قليلا ليخوض تجربة السير على التراب والغبار، وروث البهائم والطين

يعاكسانه أثناء سيره حتى كاد طرف بنطالونه أن يدنس لولا أنه تفاداه بأعجوبة المراوغة.

فى ساحة دار الضيافة التى تطل على عيدان الذرة وبجوارها الشادوف كان خالد يتأمل ديكورها الطبيعى المرصوص عودًا تلو العود وحزمة تلو الحزمة. وكنكة الشاى وصّرة العيش(خُص الأرياف) تبسط خالد الأرض وبجواره صديقه الشيخ محمود وأنساب الحديث مع نسمات الجوالبارد فى أجواء غيطية نقية تخلو من شوائب المدينة المعكرة , نظر خالد لصديقه وقال في أسف :

– أنا قلت أجى أسلم عليك قبل ما أتخلى عن هذا البلد وقد فوضت الأمر للشعب ! !

– إيه يا خالد، يئست؟

بنبرة زغلولية أيام الثورة:

– وتعبت، وزهقت، واتعذبت، ومش شايف لها أمل، البلد دخلت سن اليأس شايف البلد دى .. بقت زى البتاعة دي، وأشار للكنكة، التى أسودت وتهالكت وتآكل حجمها من كثرة عرضها على ركية النار غدوا وعشيا وحين الظهيرة. فأكمل على كلامه الشيخ محمود على وتيرته الآسفة على حال البلد :

– والله أنت بتقول فيها ! ! الواحد حاسس أنه هيموت ومش هيشوف لها فجر خالص، كل السبل ياخالد، انعدمت. . ! ! الواقع بيقول كدا، ثم بكلمات تمخضت عن بقايا أمل مبهوت أكمل :لكن احنا عشمنا فى اللى خالقنا، واحنا بنعمل اللى علينا، وما النصر إلا صبر ساعة، ولا نعلم متى هذه الساعة؟

خالد كعادته الساخرة:

– أنا ياعم ضبطت ساعتى على برة، خليكم أنتم بقى منتظرين ساعة مصر اللى عقربها واقف ومتعطل من ستين سنة وبتحاولوا تصلحوه، (ونبرة الناصح الرشيد) العقرب دا فى جماعة مسكاها بسلاسل عشان مايتحركش لقدام، مش قصدى طبعا جماعتكم رغم أنكم برضه أنتم السبب بغبائكم المفرط، قالها بضحكة مستفزة يشوبها السخرية والحسرة!!

بضيق رد الشيخ محمود:

– دا مش وقت العتاب والحساب ياخالد، الواقع بيحتم علينا التلاحم وترك الماضى عشان نواجه خصومنا، ولازم نتغلب على أخطاءنا ونبص لقدام ولا أنت إيه رأيك؟

وكان رأي خالد :

– إنى سايبها ولما تتلاحموا، دا إن لقيتم لحمة أصلا اللحمة كل يوم بتغلى عشان الدولار يبقى نادوا لي، أن هاكون لسه برضه مصري..بس ف البطاقة وضحك ضحكة فاترة مبتورة

– واحنا وقتها هانادى لك ليه، أنت خلاص مش سبتها وبعت القضية؟

– ياعم أنا هابقى ارجع عشان أتلاحم معاكم وأكل لحمة، (ثم أعقب جملته بضحكته المعهودة التى تبوح بمآسى دهره الجاثمة على حياته).

نظر الشيخ محمود لخالد إليه بعين الحيرة وسأله:

– أنت راضى حقيقى باللى أنت مقبل عليه ياخالد؟ حقيقى أنت مهاجر وأنت مطمن لكدا؟

رد خالد سائلًا:

– أنت مطمن لحال البلد؟

الشيخ محمود بعدما تأمل مليا رد في حزن:

– لا.. !! وأكمل : ومين مطمئن لحال البلد؟ البلد الذى أسفر عن أقبح ما فيه وتكشّف فى وجه الشيطان الملعون وأتى برجس الدنيا والآخرة.

– خلاص مش هتفرق كتير؛ فى البلد خطر وفى الهجرة خطر، بس أنا فضلت خطر الهجرة على خطر الوطن، وفى بلدك مافيش أى بوادر أمل، لكن فى الهجرة فى أمل وأمل كبير، وربك يسترها!!

هذه الكلمات تسربت عفويًا لعمق إدارك الشيخ (المحمود) وتآلفت مع أحاسيس خالد فأفصح وغالبه البواح:

– أنت عارف يا خالد، الطريقة اللى أنت هتسيب من خلالها البلد – اللى عفنت دى – لو مجانية أو غير مكلفة؟ كنت هاجرت زيك ورزقى على الله، وهى موتة ولا أكثر وتبقى محاولة فيها أمل زى أنت ما بتقول، بس انا خايف كنت ألمم القريشين اللى معايا وابيع اللى وراى واللى قدامى، وممكن كمان أتداين عليهم وتيجى الطوبة فى المعطوبة – واحنا الظاهر اننا شعب منحوس– والمركب اللى اركبها تكون فى رمقها الأخير، ولا يكون فيها حد

أمـه داعيـة عليـه، تغـرق المركـب، يبقـى مـوت وخـراب ديـار. .!! سمعـت أنـت أكيـد عـن المـوت وخـراب الديـار؟ هـو دا المـوت وخـراب الديـار يـا خالـد!! ربنـا يسـترها معـاك يـا صديقـي، قالهـا وكادت الدمـوع أن تهـرب مـن حراسـة مقلتيـه إلى سـاحة وجنتيـه.

خالـد حتـى لا يـدع جنـود الخـوف والقلـق تتسـرب إلى حصنـه الداخلـى رد عليـه مبتسـما:

– لأ يـا عـم، أنـت تخليـك هنـا، (معلـلًا) لزامـا برضـه لـو مصـر عملـت فـيَّ اللـى عملتيـه، أسـيب لهـا حـد اطمـن عليهـا مـن خلالـه. ثـم هـمّ بالقيـام ليـودع صديقـه بمعانقـة لم تكـن هـذه المـرة تلقيديـة فقـد تمازجـت فيهـا مشـاعرالصداقة والأخـوة مـع هواجـس الخـوف والقلـق علـى الفـراق الـذى بـدا محتومًـا.

الشيخ محمود بعد أن مشى خالد بعيدا عنه قليلا متسائلًا:

– وإلى أين قبلتك يا صاحبى؟

خالد يلتفت إليه وبعدما صمت مليًا رد آسفًا:

– إلى أى مكانٍ.. حيث لامصر!

كانـت هـذه جملـة الـوداع، وداع وطنٍ فـى صورة صديـق أو صاحب، هـذا الـوداع الـذى يخلـع القلـب فيفـتره عـن خفقانـه، ويرمـد العـين ويكحلهـا باكتـواء الدمـع الجـارف. يعجـز الـكلام عـن بـواح ذى الألم. تختـل المشـاهد باضطـراب المـزاج المعصـب بلثـام الحـرق والأسـى. يلعـن وطنـه ويتهمـه بالجنايـة فـى حقـه ويـرى ثـأره بالهجـرة والرحيـل عنـه، لكنـه فـى إحسـاس متابـين يشـج رأس العنـاد ويصدعهـا ويسـمع

همسات الوطن ترنم أذانيه بذكريات الماضى بما فيها من أفراح وأتراح، هذه الذكريات التى لا يكفرها سوى جاحد بالوطنية لم يرعَ للأرض التى تربى عليها حق وإن لاقى ما لاقى من كمد وبأس فى سبيل العيش، أحاسيس ومشاعر مضطربة متباينة لكن هناك عامل مشترك بين تلك المشاعر وهي بلاغة الموقف المتجسدة فى صورة الدمع الحار.

خالد بعدما فرغ من طقوس الوداع ورحل عن صديقه ركب (تاكسى الإسكندرية) تلكم العربة التى رسمت لنفسها صورة صفراوية اللون على لوحة عروس البحر فزادت من شوارعها وميادينها جمالاً. يسير التاكسى على كورنيش المتوسط حيث شاء خالد. يخرج خالد نظره من نافذة التاكسى الزجاجية واضعًا خده على يده، يشاهد كل ما يمر عليه – كأنه سائح لأول مرة يزور الإسكندرية – يرى الأشياء كأنها هى التى تتحرك من أمامه وتتلاشى مع السير، وهكذا يشعر فى داخله، أن الوطن هو من يرحل عنه، وليس هو من يرحل عن الوطن ولعله يستشهدعلى شعوره بهذا البيت للمتنبى:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا إلا تفارقهم فالراحلون همُ

وفى الحقيقية كما أن القانون الفيزيائى يكذب الخدعة البصرية فإن الواقع يكذب شعور خالد فى الرحيل، خالد هو من يرحل.. هو من ينأى كما أن التاكسى وهو من يسير.. ويبتعد..

على مقربة من منحدر الشاطيء استوقف خالد التاكسى ونزل ثم أذن له بالرحيل، نزل المنحدر ليجد أخمصه تلامس أحجار

يضربها تموج الماء، صوت البحر يطرب مسامعه وكأنه يرحب به. حقيبته على كتفه وعيناه شاردتان فى صفحة البحر الواسع. صمت وهدوء.. وسكينة مع صوت البحر العازف فى وقت لم تحم الشمس بعد، مازال الغدوّ حاضرا، فى خلسة من مشهد الصمت التأملى هربت عين خالد إلى مركب صغيرة ترسو بجواره على الشاطىء وعلى ظهرها صياد يبدو أنه يستعد لصيد رزقه من أحشاء البحر المالح، يجهز شباكه، يلمح خالد صبيا يقترب من مركب الصياد ويناوله شيئا ويعطيه الرجل شيئا آخر، دنا الصبى واقترب قُرب المكان الذى يقف فيه خالد فأسرت هيئته أنظار خالد ببنطاله المهترئ، مرقع ومقطّع ونعله الذى تهالك وانبرى فضلا عن الوسخ الذى يغطى وجه الصبى لكنه فى يده شص وأتى للصيد، بدأ خالد فى مراقبة الصبى وتعجب من هيئته وزاد تعجبه كيف يفعل هذا الصبى بتلك العصى التى لاتزيد عن طوله إلا قليلا وهذا الخيط القصير (خيط الشص)!! أى طعم هذا الذى يأمل الصبى أن يأتيه بسمكة، ! لعل الرجل الذى ابتاعه طُعم الصيد قد يخوض شساع البحر نهارا ولا يرجع بشئ منه، ألهذا الصبى أن يغنتم شيئا؟! الصبى يطعّم سناره ويلقى به فى الماء الذى يأتى ويذهب بحركة الموج، إقترب منه خالد بعدما رآه بشصه، رآه كلما ألقى بسناره علق شئ فيها.

خالد فى نفسه وهو يتأمل المشهد:

«يبدو أن هذا الصبى مرزوق وله حظ موفور، شصه يصطاد ويأتيه بالسمك».

يدنو منه خالد طمعًا أن يناله شئ من حظه «الصبى تغلب على تعاسة الظروف وظلام الواقع , وفي نفسه يسأل» أحق فى هذا الوطن هناك أحد محظوظ ويرتزق بلا تعب ولا إرهاق»؟

خالد يشاهد الصبي، وقدلفت انتباه خالد شيء ما يفعله الصبي، ماذا يفعل؟

يلقى بما يصطاد فى البحر، الشئ الذى أثار دهشة خالد فذهب إليه وشاهده عن قرب؛ ليضحك خالد ويهم بالرحيل بعدما رأى صيد الصبى سمكا صغيرا .!! تيقن عندها خالد أن هذا الوطن خادع فيما يبشرك به أو يعدك إياه، وأنه صائب فى رحيله، سيقضى هذا الصبى يومه جاهدا، وستحرقه الشمس وتزيد من سواده وسيفقد طُعمه الذى ابتاعه من الصياد دون أن يعود بسمكة يصح أن يطلق عليها صيدا!

«لابديل عن الرحيل» هذا الجملة التى أذعن بها لنفسه وهو يصعد المنحدر ليكمل مسيرة الرحيل.

* * *

فى حـرب ٧٣ عمـى الـلى كان واخـد بالـه مـن أبويا سـاعتها مـات فى الحرب

ركب نبيل الثعبان الحديدى الذى يراوغ المدن بصوته القارع، وساق القدر أن يتجاور فى المقعد ويترافق فى الرحلة شاب فى الخامسة والعشرين نحيف البنية، يتبختر فى هزال وضعف ، قسمات وجه مشربة بالهمّ والغم، غير مبالٍ بمظهره وشعره الأشعث، يرتدى سروال جينز طال عليه الأمد، فوقه قميص لا يُعرف له لون بنصف كم واسع عليه مثل السروال، الحزام لف خصره لفة ونصف اللفة من نحافته، وفى قدميه ينتعل شبشبا بصباع، بهيئته هذه كاد الركاب أن يناولوه شيئًا مما يجودون بها على الشحاذين.

تبادلا التعارف ببعضهما بعدما عرفا أنهما يسافران فى رحلة واحدة مع نفس الرجل. بدأ يسمع نبيل قصة صاحبه بعدما سرد عليه قصته التى ظن نبيل أنه سيحتضنه ويذرف الدموع تعاطفًا معه، لم يعلم أن قصة صاحبه أصعب.

بص ياواد عمى:

فى حرب ٧٣ عمى اللى كان واخد باله من أبويا ساعتها مات فى الحرب زى ماجلتلك: ابويا كفيف ومكنش ليه إلا هو، لما مات فى الحرب مرات عمى خدت نص البيت اللى كان اربع جوض أخدت جوطين وأبويا أخد جوطين الناس جالولها: اجوزيه واكسبى فيه ثواب.

جالتلهم: ماجوّز واحد أعمى .

راح الشيخ اللى كان بيصلى فى الجامع بالناس واخد أبويا ومويده عند جمعية خيرية وجال لهم: عايزين نجوزوا الراجل دا عشان حد يساعده وياخد باله منه .

جالولـه: ماشـى وشـافوا لـه واحـدة كانـت برضـه تبـع الجميعـة بيصرفـوا عليهـا وبيسـعدوها عشـان كانـت عندهـا تعـب فـى دماغهـا ولسـانها تجيـل، واهلهـا نـاس فُجـرة جـوي، المهـم الجمعيـة لـت تبرعـات وظبطـوا الجوطـين لابويـا وجـوزوه، وبعـد خمـس سـنين انـا اتولـدت وشـوية مـن معـاش السـادات علـى شـوية تبرعـات، أبويـا كان بيربينـى ويجيـب عـلاج لامـى عشـان لسـانها اللـى بيتجـل، كـبرت ورحـت المدرسـة لحـد تالتـة إعـدادى وجعـدت عشـان اشـتغل واسـاعد ابويـا شـوية فـى الـورش وشـوية فـى الغيطـان اجمـع فاصوليـة وبطاطـس واعـزأ لمـا وسـطى اتقطـم. نظـر لنبيـل وهـو يقـول واللّه ياولـد عمـى كنـت بقـوم الفجـر افضـل مميـل لحـد مـا تليـل وفـى الأخـر اقبـض ٧ جنيـه واروح اترمـى زى الكلـب الميـت وامـى عشـان تعبانـة فـى دماغهـا مكنتـش بتاخـد بالهـا منـى كنـت بنـام بعرجـى واجـوم بـدرى علـى الشـغل وانـا تعبـان، وفـى يـوم ابويـا حـب يسـخن لى اميـه عشـان اسـتحمى وهـو بيشـيلها اشـنكل إدلجـت عليـه سـلخت ايـده ورجلـو النـاس خـدوه وغـيرو علـى ايـدو. نظـر إليـه نبيـل تعطفـا واردف فـى غـير اتـزان فـى كلامـه: طـب. أنـت مسـافر وهاتسـيب أمـك العبيطـة وابـوك الأعمـى لمـين؟! المفـروض ماتسـبهومش وتمشـى.

هرش عبدالجواد فى رأسه مطاردا شيئا يعبث فيه، ورد:

– واللّه يـاواد عمـى أبويـا اللـى جـالى سـافر، فـى يـوم كان جاعد مع عمـى الحـاج سـويلم تحـت سـجرتهم بيشـربوا الشـاي، عـدى عليهـم صابـر ولـد أبـو الجعايـدة جعـد معاهـم شـرب الشـاي، وجـى منـين ياصابـر جـال لهـم: كنـت بجيـب التحويلـة اللـى بعتهـا «صـادج» مـن بـرا، أصلـه صابـر دا يـا واد عمـى مسـافر مـن اول عامنويـل ومكنـش

حليتهم اللضة، عمل شوية فلوس من بلاد الخواجات وبيبعت لأخوه كل شوية على البوستة أخوه أشترى محرات واستأجر حتيتين أرض وأشترى جاموسة عُشر من السوج. يضحك نبيل من لهجة هذا الصعيدى ومن بساطته فى السرد وبراءته فى الحوار. لم يدر نبيل أنها أخر ضحكة يتلوى بها فاه.

– بتضحك ليه واد عمي؟

نبيل:

– لأ مافيش كمل، كمل يا برنس.

بس ياواد عمى أبويا جال لصابر لو أخوه يعرف يشوف شغلانة لىَّ فى بلاد الخواجات معاه؟ رد عليه صادج وجالو: هتصل بأخويا وهاجوله، وبإذن الله ياعم أبو «عبجواد» يشوف له مصلحة هناك، وبعد سبوعين «صادج» خبط علينا عشية وجال لأبويا: أنى ممكن أسافر وعرفنا بالراجل اللى سفر أخوه، أبويا كلم الراجل اللى سفر «صادج»: عايزين نسفر» عبجواد» احنا من طرف «صادج» الراجل جالو: جهز عشرين الف جنيه أبويا بعدها باع النص جراط الأرض اللى حيلتنا وجالى: هتسافر ياعبجواد وكلم» صادج «انو يجابلنى لما اروح بلاد الجواجات. نبيل لأول مرة يظهر عقله أنه لديه قدرة على التحليل والطرح عندما طرح هذا السؤال على عبدالجواد سائلا: طب ليه يابرنس بفلوس النص اراط، أبوك ما عملكش مشروع، كان فتحالك دكان ولاشافل لك أى حاجة بيهم تاكل منها عيش ويطلع لك منها سبوبة بدل الشحططة وبهدلة السفر، ويا عالم ممكن تلاقى شغل بعد متسافر ولا لأ؟

– يا واد عمى أنا جولت له:

يابويا أنا هشتغل فى الغيط وبفلوس النص جراط عالج امى ونفسك بيها

جال لى: انت هتسافر زى ولِد الجعايدة وتتبعت لنا فلوس و انت اللى هتعالجنى أنا وأمك.

كانت هذ آخر جملة قالها عبجواد لنبيل قبل أن ينزلا من القطار ويفترقا نفى زحام محطة مصر.

* * *

بعيدا عن تسابيح البحر وعزيف أمواجه، فى بلدة شعبية من حى عزبة سعد (مقهى الزمن الجميل) المذيع فى التلفاز يقرأ أخبار الخامسة مساء .

وزير القوى العاملة يصرّح:

«توفير مليون فرصة عمل للشباب والمرتبات تصل لـ ٨٠٠٠ ومصر لا تعانى البطالة، كما يناشد الوزير الشباب ويدعوهم للعمل وأن يخرجوا من تحت وطأة الكسل والخمول ويشمروا سواعدهم لبناء وطنهم الغالى».

نظر خالد لساعده فرأى الساعة قد هرب عقربها من الخامسة وعشرة دقائق، المفترض أن الرجل الذى سيأتى ليأخذه إلى المركب لعبور البحر– فى رحلة سفارى فى شوارع أو مطاعم أو أوروبا بحثا عن الـ٨٠٠٠ – لم يأت بعد تأخر عن ميعاده.

– تشرب حاجة تانى يا باشا.

بغمزة لم يفهم إشارتها خالد، هطل عليه كالظل المنكسر وقت الظهيرة، تغافل خالد النادل المشكوك فى أمره ونظر لهاتفه الذى صخب بالرنين

صوت غلبت اللهجة الصعيدية فيها لهجة البحر (اللهجة الاسكندرية):

الباشا معدى؟

نظر له خالد وتأمل بنيته التى حجبت نور الشمس، قبل أن يجلس بجواره وسأله:

– أنت خالد؟

يرد: أنا خالد

بنبرة بوليسية راغت للشك:

– افتح شنطتك.

فتح خالد فرجة حقيبته وفضح سترها الداخلي،

وقال مشجعًا:

– زين برضه مخفف ودا افضل. ثم مشيرًا بيده علامة الرحيل: هات شنطة خلجاتك وبينا يلا.

المذيع: اللقاء المرتقب بين منتخبنا الوطنى ومنتخب غانا، اللقاء الذى يعول عليه التسعون مليون أفراحهم وآمالهم، خالد يائسًا:

– يلا بينا ياخال.

ركب خالد والصعيدى فأر الشوارع والحواري.

(آه لو لعبت يا زهرة واتبدلت الأحوال وركبت أول موجة فى سكة الأوهاااام).

ومع انسابية شيبة فى سكة الأوهام يتسلل(التكتوك (الأزقة والحواري، وتتلاشى شيئا فشيئا معالم الشعبية المرتسمة فى لوحة المبانى العتيقة والشوارع الضيقة المتعرجة، وتطل ملامح المدينة بعبق البحر وأضوائها المتزاحمة من أبنيتها الفاخمة وأبراجها العالية، نزل خالد والصعيدي من (التكتوك) وتركه الصعيدى يرحل لحال سبيله بعدما تفاوض حول الأجرة دام لمدة ثلاثين ثانية .

– لا يا بويا.

– انا عايز خمشتاشر جنى.

– خد، جاتكم البلا مليتم البلد

خالد يواسيه فى «الخمستاشر جنى» :

– معلهش كل حاجة فى البلد غليت، هى هتيجى على التكتوك، واهو احسن ما يسرق.

– العيال بتاع التكاتك دول ياولد ابوي، عيال منششة.

ضحك خالد وسأله:

– يعنى أيه منششة ياكبير؟

رد : بغشوميته السخيفة

– ..(ما معناه أن أباهم ضاجع أمهم في عذرها)

يضحك خالد: احنا قدمنا كتير يا كبير؟

– دقيقة ونوصلوا.

و صدق فى قوله، فلم تمر الدقيقة – سيرا على الأقدام – حتى رأى خالد قدمه قد ركنت أمام عربة الترحيلات.

– اركب يا ابويا اركب.

قالها الصعيدى لخالد بنبرة تجسدت فى مشاهد المداهمات الأمنية، خالد لم يركب بل شحن مثل المعتقل السياسى فى ساحة العربة، التى تضيق بمن فيها من بشر شُحنوا مثل خالد.

خالد يتأمل الوجوه الشاحبة، وهو يراوغ نفسه أملا فى اكتشاف ثغرة يجلس فيها بين خضم التكدس البشرى فطرق هازلًا :

– الأخوة مهاجرين ولا مسافرين؟

لم تلقَ هزلية خالد أدنى استحسان يذكر، ولم يسمع لها ردًا سوى الصمت والعبوس الطاغى من المهاجرين.

– إحنا ف العربية أجيلنا يومين مستنين الراجل. بصوت صغير رد على خالد؛ فظن خالد فى بادئ الأمر أن أذنه بها شيئ من الهوس، لكنه تأكد أنه صوت حقيقي، وأن أذنه مازالت تعمل، ولم يصبها مكروه بعد، وهذا لما سمع:

– ما سمعتش الراجل هايجى ميتى؟

نظر لمصدر الصوت فإذا بفتى لم يتجاوز العاشرة- أو تجاوزها بقليل – من عمره هو من كان يتحدث، يقرفص فى ركن فى مقدمة صندوق العربة بجوار سمين أربعينى ورآه بجسده الممتلىء.

مرت ثلاثون دقيقة لم يتفوه أحد من الشخوص المتكدسة بكلمة، وظلت أنفاسهم تشهق الانتظار وتظفر بالملل فى ترقب بعيون حادة تقتل بجحوظها الثاقب، وجوه يومئذ غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم من ينتظرون الهجرة.

خالد يفتر الصمت المداهم ويهمس لمن يقعد جانبه:

– احنا منتظرين هنا ليه؟

نظر إليه بطرف عينه ورد بمضض:

– مش البرنس قال لك مستنين الراجل، وهو يلوّح برأسه تجاه الصبي، واسكت بقى عشان متعملش مشاكل، عشان هما محذرينا من الكلام.

نازع خالد شعورا بالكبت والتقيد لكنه تعامل مع الأمر على أنه من طقوس ختام العبودية التى تشبّع بها الوطن وصارت من سجاياه.

مرت ساعات الغسق وداعبت مصابيح الدجى منفذى العربة التى يتكدس فيها خالد ورفقاء الهجرة، يشهقون الانتظار ويزفرون الملل، واتشحت وجوههم بالعبوس والضجر. وفجأة يقطع الصمت صوت محرك السيارة وتبدأ فى السير، تندت الوجوه العابسة بقطرات من الراحة عندما توقفت السيارة وفتح الباب طويل البنية، وبصوت ريفى مزيف:

– معلهش يا جماعة أتأخرت عليكم شوية، بس أمان كدا نقدر نمشى ونروح البحر.

بدوره خالد سأله منفثًا بعض كبته:

– وممكن نتنفس ونتتكلم؟

بابتسامة فتّرها الحذر رد:

– ممكن..بس ياريت بصوت واطى عشان الطريق..والحرص واجب. تسير السيارة وصمت الركاب يتلاشى شيئا فشيئا مع رتابة سيرها، بعدما شرع خالد مخاطبا:

– احنا بالصلاة على النبى كدا محشورين فى عربية واحدة، اللى زى الزنانة، مسافرين ومهاجرين هجرة واحدة .. وممكن يوحدنا القدر فى مركب واحدة، فعايزين الرحلة تبقى جميلة، تعود علينا وعليكم بالخير وربنا يستر ولايانا ..

بلهجة سودانية:

– انتم يا مصرين تموتوا لو مهزرتوش.

خالد:

– طب ياعم عثمان خد بالك من الراجل الصغير اللى فى ضلك عشان دا أمل بكرة وطموح الغد.

* * *

ومع اختلاس السيارة مدى الطريق لرحلة تتكشّفت للمهاجرين بأملٍ نازف، تناثر الحكى والكلام من شفاه تلثمت بالصمت طيلةً يومين، فى هذين اليومين عانق فيهما الخوف والقلق مهج المهاجرين فنفّسوا عن أنفسهم بالحكى والحوار المهموم .

خالد لشخص يبادله النقاش متسائلًا:

– وانتم قاعدين فى العربية من يومين ليه؟

يرد وكان وجه مغبّر بالصمت:

– أنا أول ما جيت ركبت العربية وشوية وجماعة جم وركبوا، وشوية تانى جماعة زيهم جم وركبوا هكذا دواليك لمدة تلت ساعات وكل جماعة مايركبوا يجى شخص ويقول لنا ممنوع الكلام والتزموا الصمت لحد ما نجمع زمايلكم والراجل اللى عارف الطريق يجى ونمشى كدا لغاية يومين واحنا منتظرين عزيز مصر يفتح لنا بوابة الخروج من المحروسة.

خالد بنرفزة لا داعى لها:

– ليه هو معاه خريطة العالم!!

فيردف الآخر سابًا:

– والله ياعم حاجة آخر (...) كلمة إباحية؛ فضحك خالد وسأله:

– أنت منين يا ذوق؟

– أنا خليل م الجيزة.

عقب خالد:

– بلد الأهرامات .

– وأبو الهول .

فسأل خالد:

– ساكن فين فى الجيزة؟

– فى الهرم.

يهازله خالد متسائلًا:

– الكبير ولا الصغير !

فيرد الأخر بهزل أعمق:

– الوسطانى جنب أبو الهول.

ومع تغافل المهاجرين عن الطريق بثرثرتهم الكلامية، قطع أذان الفجر لهوهم الكلامي، لتهدأ أنفاسهم بعدما أوصاهم العابر السودانى ترديد الأذان ليحميهم الله ويسترها معهم:

– رددوا الأذان يا أخوة عشان ربُنا يسترها معُنا

فى وقت يبهتُ فيه ستار الليل من سطوة الصباح الشارق, وقفت السيارة التى يشحن فيها المهاجرون أمام بوابة حديدية عملاقة تعكس القتامة التى آلت إليها حال المهاجرين. نزل أحدهم من الكابينة وبصوت كاسر لبقايا الليل المحتضر نادى: أن افتح البوابة.

فتحت ضلفة البوابة التى أيقظ صريرها – الذى ينبئ عن فتح ترباس اعتراه الصدأ – نعاس المهاجرين الذين أنهكهم ترنح السيارة فى سيرها، ولجت السيارة البوابة ثم أعاد مواربتها ذو الشارب المتهدل والوجه القاتم الواجم الذى عانى السهر، نزل من بيده مقاليد الأمور وخريطة العالم – حسبما ينعته خالد– وفتح للمهاجرين باب العربة الخلفى وأذن لهم بالنزول.

نزل المهاجرون من العربة كأنهم ينزلون جبلاً مما يحط بجسدهم من تعب وأرق بسبب حبسهم المقصود أو غير المقصود داخل صندوق العربة لمدة يومين، وبأمر من صاحبهم جعلهم يستوطنون هذا المكان إلى أجل غير مسمى ورحل بعدما أجابهم عن سؤالهم: متى سيعود لهم أو متى سيخوضون البحر؟

«استنوا بس لمدة كام يوم على ما جماعة زيكم ييجوا وهتسافروا معاهم».

تتناثر أنظار بعضهم فى كراكيب المكان المزدحم بأشلاء السيارات وقطع غيارها المتراكمة والمتغبرة بالأتربة والصدأ، يدندن بالمكان صوت الهواء الذى يتخلل بين أكوام قطع الغيار المتسرب من نوافذ مفتحة وغير مفتحة أعلى جوانب المخزن الواسع، ومن المهاجرين من سجى جسده المنهك الهامد بين الفروج الضيقة للأكومة من غلبة النعاس والنسيم البارد، حتى استعار الجميع هدنة من وساوس فكره واستنكر هواجسه التى تجرى فى سراديب رأسه وسلم جسده لسطوة النوم الزاحف أرقًا وتعبًا.

ناموا جميعًا ومنهم خالد, إلا قليل .. حتى تسربت إليهم أشعة الشمس الواهجة من تلك النوافذ العالية ليقوموا من رقادهم الممقوت بكوابيس الهجرة حتى رأى أحدهم أن المركب التى سيعبرون بها البحر قد غرقت وكانت هى حكاية الصباح لهؤلاء الباحثين عن لطافة العيش عبر طرق وعرة.

أخذ الصعيدى الغاشم يدلى بحكيه لما رآه فى منامه والكل يسمعه بامتعاض وتشاؤم.

– ياعم غيّر الحكاية دىَّ، حلم إيه اللى أنت رايح تحلم بيه دى الوقتِ ! !

من تحت بطانيته الرثة التى تتغلب برائحتها على رائحة الشحم والصدأ الذى يكسو المخزن سأل:

– هو احنا فين ياجدعان؟ حد عارف؟

فيرد عليه هذا الفيومى الذى أتى من غرب النيل حاملاً أملاً مسبوقًا بفشل لمرةٍ سابقة، حاول من خلالها عبور الشاطئ الآخر لبلاد النعيم الأوربى لكن شرطة الخفر نكلت بآماله وأعادته إلى وطنه غانمًا التحسر .. كاسبًا اليأس.. حائزا على لاشىء من مال الهجرة:

– احنا هنا برج (ميغيزل)، يعنى برة الأسكندرية، أنا جيت المكان دا قبل كدا.

حملقت العيون إليه وهم فى صمت لحديثه – كأنه الشعراوى حين يفسر أيات الذكر الحكيم فى جامع الحسين.

– ومـا تخافـوش يـا جدعـان احنـا صحيـح ممكـن نسـتنى هنـا كام يـوم لحـد مـا العـدد يكمـل وبعـد كـدا هنـروح علـى البحـر علـى الطـول.

قالها ببساطة يحسد عليها !.

سأله أحدهم بنبرة بدوية:

– عدد أيش اللى هيكمل؟

رد: أصـل صاحـب المركـب بيجمـع أكـبر عـدد مـن الناس المسـافرة، أمـال مـش كلـه بيـدور علـى الفلـوس، ودى رحلـة الفلوس؟

قالها وهو ينصحهم قائلا:

ادعـوا ربنـا يسـهلها ويبعـت اللـى لـه نصيـب انـه يعـدى الـبر التانـى بسـرعة عشـان مانسـتناش كتـير .

– هو أنت حاولت تهاجر قبل كدا؟ سأله خالد.

– ومـين مـا حاولـش، أو مـش عايـز يحـاول ف الحالـة الجبـس اللـى احنـا عايشـين فيهـا دي؟!

خالـد يطبـق شـفتيه ويشـير لـه بخنصـره وهـو مقبـض أصابعـه إعجابًـا بقـول الرجـل!!

يسترسل الفيومى فى حديثه عن محاولته السابقة ويقول:

– كنـا تلاتـة جينـا مـع بعـض مـن بلدنـا بعدمـا كل واحـد فينـا اتصـرف وجمّـع حـق الهجـرة للسمسـار، فينـا اللـى بـاع صيغـة أمـه وفينـا اللـى أدايـن لطـوب الأرض، وأنـا كان معايـا قرشـين شـايلهم

لزنقة الدنيا اللى كلها زنقة على ثمن بقرة بعتها وقولنا نتوكل نسافر على بلاد الخواجات ونعدى البر التانى نقصد باب رزق واسع، ! سمعنا أنه هناك الأبواب واسعة وأى حد ممكن يلاقى باب يطلع منه م الفقر اللى قاتلنا: يلا ياسفر، يلا ياسفر، جينا مكان برضه زى دا فى نفس العربية، وبعدين قالولنا هتسنوا شوية لحد ما نجمعكم..الشوية كانوا كام يوم، .!! بس ربنا سهلها واتجمعنا واركبنا المركب، وفى البحر سمكة وفى ايدى شبكة، (الكل مازال يحملق وينصتون له) والغربة هلكة!!

– لييييييه؟

كان تعقيب جماعة منهم فى صوت واحد.

– ما تفتكروش إن الموضوع سهل، احنا لو ربنا كرمنا بمركب واخدة على السفر وعارفة الطريق، ممكن يتقبض علينا من شرطة الموانى فى أى بر ويرحلونا ونرجع كما كنا ودا اللى حصل معانا أنا واللى كانوا معايا من خمس سنين.

ثم متنهدًا كأنه متذكرًا ماضيا:

– ياااااه، ! أيام الرخص كان الدولار باربعة حنيه، كانت أيام الثورة (٢٥يناير) كان الشباب هايج ف الشوارع وإحنا شايلين شنطنا وماشين م البلد، احنا كنا هنرجع وقولنا ثورة البلد حالها هيصلح والشباب بتاع الفيس والمثقفين هيعدلوا الدفة، سأله خالد بعدما تذكر مشوره على الفيس بدعوة الحشد لنزول ٢٥ والذى كان سبب فى اعتقاله قبل خروجه مع فتح السجون:

– وإيه اللى خلاكم كملتم فى السفر؟

يرد فى شئ من الحزن:

– بينى وبينكم عمى الله يرحمه هو اللى نصحنا وقال لنا: يا شباب اتكلوا على الله وانفدوا بجلدكم من البلد دىَّ ,لا يغركم هياج الشباب والثورة؛ البلد دىَّ تاريخها كله ثورات وحالها بيرجع أسوأ مما كانت عليه قبل الثورة، دا نابليون ماقدرش يحقق طموحه فيها وسابها ورجع بلده.

ثم أثنى على عمه قائلًا:

– كان راجل كُبارى وفاهم، كان مدرس تاريخ .. عزق فى الغيطان لما وسطه اتقطم.

– وبعد كدا ..؟ سأله بعض المهاجرين ,فأجاب متحمسًا:

– وبعد كدا وصلنا لجزيرة «لا مبيدوسيا» والشرطة الإيطالية بعد ما رحبت بينا وقامت بالواجب وغدتنا بعتت لأهلنا فى مصر اللى هما طبعا الأمن، جم ورحلونا..وهنا فى مصر برضه أهلنا عملوا معانا الواجب وكلكم عارفين واجب الأمن المصري.

يعقب خالد بهزة رأس:

– عارفين عارفين. .!!

لم ينتهِ الحاكى من حكايته حتى انتصف النهار فى ترقب مؤرق للمهاجرين تناثروا فى رتابة وعشوائية منتظمة، يجولون فى أرجاء المخزن منهم من يقضى حاجته، ومنهم من يقطع شيئًا من الملل الذى أصابه، ومنهم..ومنهم.. والكل يجمع أشلاء

وهكـذا مـر نهـار اليـوم الأول للانتظـار ولم تُقبـل أيـة بشـارة للرحيـل عـن هـذا المـكان الصاخـب بكراكيـب السـيارات الهالكـة والأتربـة المتراكمـة.

غربـت الشـمس فـى صمـت واهـن وغطـى الليـل بردائـه الحالـك أجسـاد المهاجريـن لينغمـس بعضهـم فـى نـوم هاجـع مطمئنًـا لحالـه مثـل الـذى سـبق لـه محاولـة الهجـرة سـابقًا، ومـن لا يزعجـه انتظـار الخـروج مـن قمقـم الوطـن المزدحـم بأمثالـه، ومنهـم مـن قطـع ليلـه فـى بعـض الحكـى مـع الآخـر والنـوم أحيانًـا، حتـى أذّن الفجـر بصـوت هاتـف أحدهـم، لينصـح العابـر السـودانى رفقـاء الهاجـرة بترديـد الأذان: رددوا الأذان عشـان رَبنـا يسـترها معنـا.

وفـى نشـوة إيمانيـة تتجلـى وقـت الضيـق والكـرب، عبقـت أشـلاء السـيارات بروحانياتـه المؤقتـة صلى معظم المهاجرين صـلاة الصبح خلف إمـام غريـب أم قومًـا فـى ديارهـم ظنًـا مـن منهـم بأنـه الأحـق بالإمامـة لأنـه أوصاهـم بترديـد الأذان فصلـى بهم ركعتـى الصبح بالفلـق و الناس.

* * *

بهت الليل واندثرت النجوم خفاءً وصيحات الديكة تترنم بها أذان أم نبيل هناك فى منشية ناصر بعدما قامت تصلى وتدعو الله أن يسترها مع ابنها فى هجرته، وكعادتها تخطو كل صبح نحو ركنها المعهود تنتظر الصبي، مورد بضاعتها (الفجل والجرجير) تقتطر (ام نبيل) من السماء رزقها الذى يأتيها فى صورة نقود فكة تحملها فى قعر صرّتها البالية فى نهاية النهار والرزق مرهون بالسعى والطلب، وهذا ما تؤمن به الأم المكافحة.

– ما لها خُضرتك دبلانة النهاردة ياست ياطيبة؟

صوت مسنة تلف شالها الذى يغطى نصفها الأعلى وبصوت خرج من فيه تشعبت التجاعيد من حوله كحوارى منطقة شعبية.

لم ترد أم نبيل فأعادت المسنة تقول:

– أم نبيل، انتِ مش سامعاانى؟!

تنتبه أم نبيل: هاا..

– إيه باقول لك جرجيرك دبلان ليه؟!

أم نبيل ترعى خُضرتها من ظل الشمس بأن تغطيها بقطعة خيش مبلل وبين الفينة والأخرى ترشها برشات مائية لتحافظ على نضارة الفجل والجرجير من الذبول، لكن هذا الصباح تغافلت عن هذا لانشغال فكرها بابنها المهاجر.

– ماله؟ ما هو مفتح ووروير وصابح وبيتكلم، خدى بالهنا والشفا للعيال، ناولتها حزمتى جرجير وكم رأس من فسيل البصل وراحت المسنة تتكئ على جدران الحوارى.

محمود فى سبعة أيام قبل حمله حقيبته على كاهله وتوديع أمه الساخطة على أمر سفره عاش فى خياله يبنى فيه صروح أمجاد مادية ويشيّد أبراجًا من الإنجازات الشخصية، وأتى اليوم الذى تضوع فيه آخر أعباق أنفاسه وعطور رائحته بين أحضان أمه.

أصطحبه أبوه إلى حيث أخبره السمسار إلى برج مغيزل برشيد ومن هناك تبدأ الرحلة.

لم يستهلك التاكسى الذى يستقلانه محمود وأبوه وقودا كثيرا وقد وصل إلى قرية برج مغيزل بكفر الشيخ.

* * *

هناك فى حى المعصرة كان الوداع الأسرى حول أمر الهجرة الذى لم يسمح لهم القدر بغيره حلاً، بعدما تغير مسار قطار فتاةٍ عذراء، وبعدما كان من المفترض أن يصل بها إلى محطة الزواج كنهاية عزوبية ملساء وبداية لحياة زوجية يطمرها السعد والهناء وفق قضبان أسرى صنعته أمٌّ غيور محافظة وأبٌ حنون مهاود، تغير المسار وتزاحمت الأقدار غير المتوقعة فمات أحمد الحبيب، فأحدت رجاء على موته حدادًا نفسيًا، وكانت صوره هى بداية تحرك القطار نحو محطات لم تدرِ رجاء ولا أهلها ما ينتظرها فيها، تتبنى رجاء دور الناصفة لحقوق الإنسان المغتال بأنياب الوطن المذنب فتداهما أجهزة الأمن وأصبحت حياة رجاء مليئة بأشباح المطاردة الأمنية التى لم تترك لها سبيلا من الخلاص سوى الهجرة حفاظا على عذريتها التى كادت أن تنتهك ومستقبلها الذى وئدَ فى مهده

فلم يعد لرجاء أمل فى هذا الوطن لتكون الهجرة هى الحل.

– طب يا بنتى خدى بالك من نفسك طمنينا عليكى باستمرار، أنا مش عارفة كان مستخبى لنا دا كله فين.

– وحدى الله يا أم رجاء، كله قدر ومكتوب، ربنا يسترها معاكى يا بنتى.

– سامحنى يا بابا ماعلهش ماكنتش عايزة حياتى تكون كدا، بس انت ربتنى على كده.

يرد أبوها بعدما جدولت الدموع على خده:

– ربنا يسترها معاكِ.

رحلت رجاء عن بيتها وأسرتها ترجو النجاة عن طريق الهجرة فى سرية محظورة خشية المداهمة الأمنية.

سلطة المال

هنـاك فـى سـيارة (جيـب) سـوداء كانـت تقـف تحـت كوبـرى نـادى السـكة قرنـى – ويـده اليسـرى علـى مقـواد السـيارة واليمنـى تتحـدث بالإشـارة – يتكلـم مـع أحدهـم بلدغتـه:

– يـا عـم أنـت تصّييـف، باقـول لـك الزبـون الميـه دىَّ واحـد مييـان خيجـي، دى مصيحة كويسـة.

– بـس أنـت طلبـك المـرة دىَّ صعـب، أنـا أعـرف أجيـب لـك واحـدة بتـاع ليلـة اتنين يـا عـم شـهر، بـس واحـدة تسـافر لاااا صعـب مسـتحيل.

قرنـى: ياعـم هـو حـد تايـل السـفر دى اللـى انـت هتجبهـا هتعيـش وهتشـبرأ معاهـا عـى الأخيـى وأحسـن مـن الأنقـاض اللـى أنتـم عيشـين فيها دي.

يهـرش فـى لمتـه بعدمـا شـردت عينـاه مـن زجـاج السـيارة ويقـول: سـيبنى شـوية.

تسأل قرنى بيده: قد إيه الشوية دوى؟

يرد: شهر كدة ولا حاجة.

يقولها بأريحية فينتفض قرنى قائلا:

– كتيبيى بقويك الراجل مستعجى معاك أسبوع.

– ماشى هاحاول.

قالها وهو يفتح باب السيارة لينزل قبل أن يلقفه قرنى حزمة من ورق من فئة المائة جنيه.

قرنى: شوف حاجة تشيفنا بيا .

ببرود رجولى يضحك معقبا:

– هو أنا بصبهما.

قرنى بعدما شغل محرك السيارة وحرك عصا الفتيس للأمام:

– اتصيف بسيعة.

ألفا جنيه كانتا دفعة تحفيزية جعلته يعمل عقله الذى صدّأته المخدرات والمسكرات وجال بتفكيره فى بيوت منطقته؛ لعله يجد صاحبة الجسد المطلوب، سبى كل نساء المنطقة فى مخيلته لم تنجُ من سطوته أية امرأة، بكر، ثيب، متزوجة، مطلقة، أرملة، مخطوبة، كبيرة، صغيرة.

أحضرهن واستعرضهن وكأنه عضو تحكيم فى مسابقة عارضات أزياء، هذه تنفع، وتلك لا..، هذا بدينة سمينة، وتلك نحيفة ضعيفة، هذه جميلة، تلك أجمل. ظل مع خياله وتفكيره طوال الليل حتى أصبح فى الغد وقد وجد التى تصلح أن تكون سفيرة عن المنطقة فى مهمة جنسية من نوع

خـاص (وقـوم لـوط قـال لهـم: «قَـالَ إِنِّـي لِعَمَلِكُـمْ مِـنَ الْقَالِـينَ».

ملكـة جمـال سـوق الخضـار كانـت هـى صاحبـة الحـظ فـى البعثـة، باعـت نفسـها مـن أجـل الحيـاة الكريمـة وهاجـرت هـى الأخـرى – بطريقـة غـير شـرعية – إلى مدينـة الحرمـين لتعتكـف خادمـة شـهوة فـى بيـت صاحـب الجلبـاب الأبيـض، يضاجعهـا بدولاراتـه الوفـيرة وعطاءاتـه الكثـيرة.

«عندمـا تكـون لعبـة الجنـس هوايـة الأغنيـاء ومتنفـس الفقـراء فهنـاك سر، وعـلى علـماء النفـس وأخصائـى علـم الاجتـماع أن يجلـوا لنا هـذا الـسرّ ويكشـفوا لنا سـيكولوجيات هـذه اللعبـة».

لأنـك كلـما زاد فهمـك ووعيـك فى هـذا البلـد مِـتَّ قهـرًا وحـسرة عـلى مـا نحـن فيـه.

فـى اليـوم الثالـث لانتظـار المهاجريـن – فـى المخـزن – لركـوب البحـر فُتحـت البوابـة الضخمـة لتـولج سـيارة مثـل الـذى أتـى فيهـا خالـد ورفقـاء الهجـرة المـؤودة وقفـت وسـط أنظـار تترقـب وتنظـر إليهـا بأحـداق أسـهدها الانتظـار، نـزل مـن السـيارة فـوج آخـر مـن المهاجريـن، وبانسـيابية مضطربـة تسـربوا بـين السـابقين، لم يـأت مـع هـذا الفـوج «فاتـح المحروسـة ومـن يمتلـك خريطـة العـالم» لكنـه أخبرهـم بتفاصيـل الأمـر، وكطبيعـة للأمـر فـى أى حـال يسـأل اللاحـق السـابق فيمـا سـبق؛ لتأخـذ الأسـئلة حظهـا مـن هـذا اليـوم، ويتناثـر الحكـى والحـوار بـين كراكيـب المخـزن، ويأخـذ التعـارف علـى هامـش الهجـرة حقـه فـى كسـر ملـل الانتظـار.

خالـد يتعـرف علـى شـخص أتـى مـع الفـوج الجديـد ويتبـادل معـه الحـوار والـكلام:

– طب أنت ما دخلتش الجيش ليه؟ سأله خالد.

– ماكنش عندى وقت أضيّعه.

خالد يعقد حاجبيه: إزاى مش فاهم، تقصد إيه؟

– يـا عـم جيـش إيـه اللـى هاروحـه!! العسـكرية كانـت الأول فخـر ورجولـة لكـن دى الوقـت العسـكرية بقـت ذل وإهانـة ومرمطـة .

– إزاى؟

– تـروح الجيـش لتخـدم الباشـا وولاد الباشـا، تحـرس لـه الفيـلا وتشـتغل كلـب حراسـة، والا تقـف علـى الحـدود فـى سـلاحك طلقـة واحـدة ممنـوع تضربهـا مـن غـير إذن القائـد وفـين القائـد فـى

الاستراحة ! يعنى لو كلب مسعور مش عدو هجم عليك هيموتك وتبقى شهيد الكلب المسعور.

خالد بسخرية: بس الجيش بيدربك ويخليك تتحمل الصعب ويخليك تقوى جسمك.

ينظر لخالد بعين الاستنكار ويرد: دا بيكدرك ويكسر نفسك مش بيدربك.

– الجيش واجب واطني، أنت مش وطنى ولا إيه؟ قالها بابتسامة تنوء عن السخرية.

– آه، واجب زى واجب المدرسة، بنعمله مش حبًا فى الواجب، بنعمله خوف من اللى فرض وقال على الواجب، ! وسلم لى على الواجب.

سلم عليه خالد وهو يضحك وشد بيده:

– تعالى معايا نشوف لو حد محتاج حاجة من الناس دىَّ ودا الواجب، فقام معه وطافا يتفقدان أحوال المهاجرين تطوعًا واجبا.

خالد ومن معه يطوفان بين رفقاء الهجرة منهم من يهمس بالحوار، ومنهم يتلو آيات، ومنهم من يركن تعبًا للنعاس ومنهم... ومنهم...

خالد يرى اثنين يفترشان الأرض على قصاصة من جريدة. قطعة جبن قديم رائحتها تزكى الشهية وكسرتين من العيش البلدى وحبات طماطم. الرجلان يلتفان حول تلك المائدة الريفية بانسجامهما المكنون بهمسهما الكلامى الذى قطعه خالد بالتحية والسلام:

– أهلا بأهلنا الفلاحين.

يردان: أهلا، اتفضل معانا.

خالد يقرفص ويلتقم لقمة يذيب بها الجليد للتعارف.

– ما تقدم تاكل معانا.

لمن معه:

– شكرًا؛ مليش فى الحادق.

– الرجالة منين؟ سألهما خالد، وبفضولية مسموح بها تعرف عليهما خالد

أجابا بحماس التعارف:

– من الشرقية.

نافع وجلال، الأول مدرس ابتدائى والثانى حرفى طلاء (نقاش) صديقان منذ الصغر سئما المعيشة وقررا خوض الهجرة بعد مغالبة الحياة وتزاحم مطالبها مع عدم إسعاف أجورهما لمطالب تلك الحياة الصعبة.

نافع عبر عن احتياجه:

– أنا مدرس شغال مثل التور فى الساقية والمرتب لا يكفى قوت خمسة أيام أخرج من صباح ربنا وأرجع فى عتمة الليل بعد تعب وإرهاق وفى نهاية المطاف لا أجد سوى وريقات معدومة الكثرة والبركة!!

جلال اكتفى بقوله:

– ذاهب لبلد عندها تأمين لأمثالى لأن بلدنا ليس فيه تأمين للصنايعية !

طافا يتفقدان معًا أحوال رفقاء الهجرة فيمرون على شباب جاءوا صحبة يأملون أن يعبرا البحر قاطعين أهوال الغربة بهذه الصحبة، وآخرين معهم أطفالهم هم أيضا ينتظرون ركوب البحر فى جمع أسرى لا يثنيهم عن فعلتهم هذه لا خوف ولا وجل؛ لأنهم ذاقوا أشد المآسى فى وطنهم، وآخرين وآخرين.

الانتظار فتر الحكى فيما بينهم، وزاغت عيونهم عن التأمل فى وجوههم التى تغبرت بالأرق، مرت خمسة أيام ولم يأتهم أحد بخبر حتى سأل أحدهم المهاجر الفيومى الذى سبق له محاولة عبور البحر عن المدة التى انتظروها قبل ذلك، فأجابه: إنهم انتظروا سبعة أيام؛ فهدأت مخاوف المهاجرين بعض الشئ وركنوا إلى سكنة الانتظار يهدهدون وجلهم بشئ من الحكى فيما بينهم، وتألفت الصحبة بينهم ليكتشف خالد أن من بين المهاجرين محمود أحد زملائه أيام الدراسة فى الثانوية وابن بلدته قبل أن يقطن خالد الإسكندرية من عشرة أعوام. تعجب خالد من رؤيته بين المهاجرين، محمود الذى كان يأبى أبوه أن يذهب للبلدة المجاورة لحضور درس الفيزياء الخصوصى هو الآن يذهب للبلاد الأبعد، كيف هذا، وما أجبره على هذا؟

يجيبه محمود شعرًا كعادته:

متقولش علينا كلام يكتر فيه العجب

إحنا اللى وطنا قال: نصوم عاشورا ف رجب

خالد: ولسه مهووس بالشعر؟ فاكر أيام الإذاعة المدرسية يا عرابى وأبيات شعرك التى كانت تقيم ثورة المدرسة على الناظر بيها نطالبه إنهاء الحصة السابعة، ثم يكشف عن ثناياه بقهقهة لماضى المدرسة

ضحك محمود الشاب الثلاثنى الذى ترك زوجته وطفله فى سن المهد، قاصدًا شطآن الغربة يغترف من خيرها ما يحسن له أمر معيشته:

– فاكر ياعم خالد. بس الكلام دا ماينفعش فى بلدك ما يوكلش عيش!!

– ما بلغت من التعليم يا صاحبى؟

– لقد بلغت سن الكهولة منه يا صاح.

ضحك الاثنان فيعقب الأخير سائلًا:

– انت لسه فاكر اللغة العربية الفصحى يا خالد؟

– وهل أنت تسمح لى بالحديث معك بغيرها يا أصمعي؟

فأردف ثائرًا:

– لكن البلد دى مش عايز لا متعلمين ولا مثقفين، دى عايزة ناس معلمين وصنايعية يبنوا فيلا للباشا أو يصلحوا له ماسورة سباكة أو يشتغلوا أمن على بوابته.

خالد بضحكة تبدت من طرف ثناياه:

– إيه ياعم المعلم الكلام دا؟

– ماتستغربش لأنى بعد ماخلصت تعليم اشتغلت فى الحاجات دى كلها واكتر، عشان ألاقى أأكل نفسى، وكل عام وانت طيب على تعليمك وشهاداتك ويالیتنا لم نتعلم ولم نفقه حال هذا البلد.

– ليه بتقول كدا؟

يرد على خالد بنبرة تحسر:

– لأنك كل مازاد فهمك ووعيك فى هذا البلد كلما مت قهرًا وحسرة على ما نحن فيه.

– ياعم ما أنت زعلان بس عشان ماعرفتش تتعين بشهادتك، طب إيه يعنى ماده الطبيعى مِين فى بلدك شغال بشهادته؟

بلسان شكوى يرد:

– أنا الحمدلله لا اشتغلت بشهادتى ولا بغيرها، اشتغلت بذراعى، وشِلت على كتفى، كنت ساعى وأجير فى المبانى والمحارة ورجل أمن وعمّرت مصر كلها والحمدلله ورايح أعمّر بره عشان اربى الطفل الصغير.

خالد: ربنا يحميه لك ويخليه. عايزه يا خالد يطلع يلقى حاجة يسند عليه عشان ما يتمرمطش زى ابوه.

– أنا ناوى بإذن الله لما الدنيا تستقر معايا برا واعمل قرشين أعلّمه واربيه برة؛ تعليم هنا مش قوي، مش بيأهلك لسوق العمل اللى هو أصلا زحمة عن سوق الجمعة، وبينى وبينك كفاية قوى على مصر نوسع لغيرنا.

– كفاية ليه ياصاحبى مصر مهما تكون هى برضه أم الدنيا.

كأنما جملة صاحبه إستفزته؛ فثارت فى جوانحه جنود الغضب فعقب بحرقة:

– صحيح مصر أم الدنيا لكنها ليست أمنا نحن الفقراء الغلابة، الذين شوهت حياتهم الفاقة والحاجة، مصر أم (نانسى) و(صافيناز) وأمثالهم، احتضنتهم بثراءها ونعيمها المحجوب عن أمثالنا ونبذتنا فى الغربة نقصد ليبيا أو البحر أو الخليج أو أوربا، نتخبط فى الأقدار والأقدار تتخبط فينا..!! لا ندرى ماذا نكسب غدا ولا ندرى بأى أرضٍ نموت.

يضحك خالد ساخطًا:

– عرابى سيخطب فينا أهه.

ندت ابتسامة حزينة حاسرة من طرف شفتيه:

– ولا عرابى ولا سعد، دا بس من الوجع!

الوجع، الوجع المكتوم فى نفوس استرضت نفورًا من وطنٍ ساء بهم الظن أوعدّهم رقوق أبقوا، فاستحال هذا الوجع إلى ثورة على الانتماء، وعمدوا إلى الرحيل تيمموا حرية سواه، ومولّين وجوهم شطر ثراه.

* * *

فى اليوم السابع تدخل سيارة أخرى من البوابة وينزل منها وفد آخر من المهاجرين. وكسابقيهم يتخللون ويندمجون فى لحمة الآخرين ليصيروا كالجسد الواحد الهارب من تحت الأسلاك الشائكة أيام ٦٧. وتمر أيام وأيام حتى يأتيهم فى الخامس عشر

صاحب إذن خروجهم من هذه البوابة الموصدة العملاقة ليركبوا البحر بعد انتظار أرّق أجسادهم سهرًا ونحلها جوعًا .

باعتذار مصطنع ولهجة جافة وعيون قادحة ينوء عنها السخط:

– ماعلهش يا جماعة اتأخرنا عليكم شوية.

قالها قبل أن تنهال عليه – سرًا – قذائف اللعن والسباب، اعتراضًا على تركه إياهم أيامًا دون إخبار بأمرهم شحنوا فى سيارة أضخم فى حالة انتفضت بالغضب لتسع مجالا للفرْح المخبوء تحت القلق.

وهناك على مرسى يعج بالزوارق ولنشات الصيد توزعوا عليها فى البحر الواسع حتى كاد أحدهم أن يتراجع عن ركوب الزورق خشية هذا البحر الواسع، لكنه عزم الركوب بعدما تراءت له حياته المكلومة فى صورة واعظ ينهاه عن الرجوع، فالبحر أرحم. تشق الزوارق المكتظة بالمهاجرين عباب البحر شارعة فى مداه الواسع لتصل إلى محطة ما.

هناك فى عرض البحر على بعد كليوات من الأمتار من شاطئ الوطن، مركب هش هزيل تترقب هلاكها –غرقا فى قاع البحر– مثلها مثل مراكب الهجرة غير الشرعية، هذه المركب تأبى خوض فزع الهلاك وحدها، تنتظر شبابا وصبيان وافدين إليها وهم يحملون على عاتقهم وكواهلهم آمالهم وطموحاتهم فى حقائب قد تكون أكفانا لرفات بعضهم. هذه المركب تنتظر لتحمل معها هؤلاء الشباب والصبيان الذين هم مستقبل هذا الوطن الموجوع، ليواريه فى جوف الحيتان، أو يرمى به على شطآن الغربة،

لتكون النهاية لطمة على وجه وطنٍ ثمل، أو مسحور عن الوعى الحضاري.

هيكل من الألواح والأعمدة الهشة المتلاحمة على هيئة مركب من طابقين حمولتها المعهودة مائة راكب لكن لجشع وكفر أباطرة تجارة الموت سيحمّلون هذه المركب فوق طاقتها ويشحنون فى ثلاجتها وعلى ظهرها خمسمائة شخص ومن يعترض لا عذر له سوى البحر، لاوقت للمناقشة فهم فى عرض البحر وتحت رحمة سمسار نزع قلبه ووضع مكانه محصلة نقود، لا تسأل عن إنسانية طمست فطرتها بمغريات الثراء الفاحش، أباطرة الموت يحصدون ثروتهم من جيوب شبابٍ جمعوا أمال الهجرة بالدين وبيع كل ما يمكلون حتى يعبروا ضيق المعيشة عبر هذا البحر- مهلكة الأرواح - الذى يشرع سلكه أناس استباحوا لحم إخوانهم طعامًا رخيصًا للأسماك بعدما يختلسون منهم ما جمعوا من مال.

ركب المهاجرون بمضض ودسوا فى أرجاءها والمركب تتنظر أفواجًا أخرى تتلاحق على ظهرها ليكتمل نصاب الهجرة.

سُلمت بوصلة التوجيه لقبطان المركب الذى هو أحد المهاجرين وكان يعمل صيادا ومعرفته بقيادة مثل هذا المركب لا تزيد كثيرًا عن معرفة مورينيو باللغة العربية، لكنه تطوع لقيادة المركب بعدما خفض له السمسار تكلفة الهجرة.

- لا شمال ولا يمين تفضل ماشى على طول لحد ما توصل جزيرة «كريت» وهناك هما هيوصلوكم للشاطئ ومع ألف سلامة .

كان هـذا توجيـه الوصـى علـى أمـر المهاجريـن – كبـير السماسـرة – للمتقبطـن.

دار محـرك المركـب الـذى أفـزع بصوتـه قلـوب المهاجريـن وأرجفهـا قلقًـا وخوفـا وبـدا القبطـان مثـل الـذى يبـدأ التمـرس علـى القيـادة ليكـون بمنظـره هـذا مبعـث القلـق الدائـم للمهاجريـن طـوال الرحلـة عـبر بحـرٍ لا يسـمح لارتـكاب خطـأ ولـو بسـيط.

مؤخـرة المركـب تحـدث فـوران فـى الميـاه المالحـة– مثـل غليـان سـطح المـاء فـى غلايـة تحـت النـار– مـن اندفـاع الهـواء ويتحـرك المركـب وتشـق مقدمتـه المثلثـة عبـاب البحـر شـارع غـير راجـع فـى مـداه الواسـع .

* * *

فـى التجمـع الخامـس فـى اسـتراحته الفاخـرة التـى شـيّدت أركانها علـى غـرار متاحـف بيزنطـة وسـط الخـدم والحشـم كان يتابـع القـرارت فـى الصحـف والجرائـد القوميـة، القـرارات التـى اتخذتهـا الحكومـة مؤخـرًا إسـعافًا للاقتصـاد المصـرى وتلبيـةً لرغبـة الجمهـور الطافـح لمـال الدولـة القـادح فـى نهـب ثرواتـه والتـى كانـت منهـا:

– رفع الدعم عن المواطن .

– فرض ضريبة القيمة المضافة ١٣٪.

ولأن الجنيـه المصـرى خفيـف ورشـيق فـى سـوق العملـة فقـد تم تعويمـه فـى سـقطة اقتصاديـة مـن المسـئولين.

ومن ضمن القرارت التى يتابعها:

رفع معاشات وأجور رجال القضاء والجيش – الذى هو أحد رجاله – تكافلاً من الدولة لجهدهم فى بناء الوطن.

دندن هاتفه فناولته ذات الساقين الشمعدان العاريتين فوق الركبة، والشعر الحريرالأصفرالكستنائى المنسدل على عيون قطية عسلية، والوجه الأبيض اللامع:

– ألو..

أزى معاليك يا باشا؟

– بخير ازيك يا سامح بيه؟

– ماعلهش هازعج معاليك معايا.

بحنق يخفيه:

– أقول يا سامح بيه إيه الموضوع؟

– ابن سعادتك.

– ماله؟

– فى مركب خرجت من أسطوله ومحملة ناس مهاجرة ويا باشا احنا قلنا الأيام دى مش مستحملة معانا شوشرة، دى المرة الرابعة فى سنة واحدة يطلع مركب هجرة .

لم تعد اتصالات سامح له سوى تهديدات بطريقة دبلوماسية فموضوع الهجرة ما هو إلا سبيل يستفزه به ليلين معه عند مجلس الحاشية.

– خلاص يا سامح بيه أنا هاروح بنفسى وهشوف حل للموضوع دا.

يعقب هذه المكالمة بمكالمة لابنه مصطفى ويقذفه بشتائم وتهديدات ويأمره بترك هذا الأمر، ومن ثم أخذ يهاتف أحدهم يستخبر عن أمر الترسانة وأسطول المراكب.

– والله يا باشا اللى هناك دى الوقت واحد عينه شكرى وعرفنا أن كان مكانه واحد هو اللى طرده وهو المسئو..

قاطعه آمرًا:

– تجبلى شكرى دا من تحت الأرض والمركب دى ما ترجعش تانى.

* * *

لم تكن الشمس قد هدأت حرارتها ومالت للغروب وقد خاضت المركب بعيدًا عن شواطئ الوطن، خالد كان ممن حظوا بظهر المركب، يرمق شواطيء الوطن التى تتلاشى رويدًا رويدا كلما ابتعد شاطيء الوطن فيبدو الوطن كسراب يذهب فى غشاوة العين، يغرب فى عين خالد كما تصفر الشمس فى وجه السماء وتغرب، حتى اختفت ملامح الشاطيء مع ملامح النهار وسجا الليل والمركب يتوق بأعين المهاجرين إلى نهار الغربة قاطعا عباب البحر وظلام الليل بعزم لن يقاوم بُعد السفر، وكذا المهاجرون. الليل القاتم والبحر الواسع إذا اجتمعا على قلب مهاجر أخلجاه خوفًا ودغدغاه فزعا، وكان هذا حال الكثير من المهاجرين على ذلكم المركب الذى قطع كيلومترات قبل أن يطل الصبح فى عين باتت ساهرة ليلها. ينظر من على ظهر المركب يمين وشمال وفى كل النواحى لا يرون سوى البحر ولا يسمعون إلا صوت البحر وإذا كان المركب يسير للأمام فإنه يخوض أكثر فى البحر ويترك خلفه البحر، لا شئ سوى البحر.

– أنت متأكد يا أسطى من أنك ماشى صح؟ أحد المهاجرين – بشك – يسأل المتقبطن.

لم ينظر للسائل وظل ممسكًا بذراع القيادة ورد:

– آه ماشين صح.

انتصف النهار والمركب يسير على قضبان المياه المالحة ولا شئ يوقفه حتى أكمل السير يومين فى شساع البحر، ليقف فجأة بعدما هدأ محركه، وتوقف

فـى نقطـة لم يسـتطع تحديـد موقعهـا لتبـدأ مرحلـة الخطـر.

فـزع مـن كان علـى مـتن المركـب وحـاول أحدهـم وكان مكانيكـى سـيارات معرفـة أسـباب عطـب المركـب فنـزل باطنهـا يتفقـد أسـباب العطـب لكنـه لم يسـتطع التيقـن مـن الأمـر؛ فسـطا الخـوف والقلـق علـى قلـوب المهاجريـن جميعًـا، وسـادت حالـة الفـزع. شـبح الهـلاك بـدا حقيقيـا أمـام أعينهـم

– أين المفر؟

ينظـرون حولهـم لايـرون سـوى البحـر يصرخـون وينـادون لا أحـد يلبـى نداءهـم سـوى صـوت البحـر المفـزع ووجـه المتأسـد فـى وجـه المهاجريـن. حـاول خالـد ومحمـود صديقـه التهدئـة مـن فـزع رفقـاء الهجـرة لبعـض الوقـت لكـن الموقـف كان أكـبر مـن احتـواء خالـد ومـن معـه لمخـاوف المهاجريـن.

مـرت السـاعات المتبقية من النهار والليل يسـلب مـا تبقى للمهاجرين مـن نـور علـى مـتن المركـب ليـزداد الفـزع والخـوف فـى قلوبهـم.

رحلـت بقايـا النـور المتبقيـة للمركـب التعـس بأهلـه وألبـس الليـل بردتـه الحالكـة جسـدَ السـماء المكسـو بطيـور الشـتاء، وخـرزه بحبـات النجـوم اللامعـة، التـى تنعكـس فـى مـرآة البحـر المظلـم، ليحـدث الانسـجام المشـؤوم بـين الاسـتنجاد المختلـط بتضـرع، أو التضـرع المصبـوغ بالاسـتنجاد، وبـين همـس البحـر الطـام علـى مهـج المهاجريـن بالفـزع، وبـين تسـبيح النجـوم بضيائهـا فـى قاتمـة تنـبيء بمـا آل إليـه قـدر هـؤلاء التعسـاء.

باتوا ليلتهم هذه فى أُنس شبح الهلاك يتضرعون إلى الله بالدعاء والاستغفار، لاذين إليه راجين منه النجاة. النجاة من أجل ذويهم وأهليهم، من أجل أطفالهم الذين سلكوا هذه الطريق الوعرة طمعًا فى تبسيط حياة أفضل لمستقبلهم، كان هذا من بوح محمود صديق خالد بعدما واسته القريحة فصرخ بأبيات من قريض العامية:

لا تعيب علينا البحر والبحر طريقه هلاك

تنسينى مآسى سنين وتسألنى من وداك!!

فى مهاريج الهلاك محمود الصبى الذى اختار طريق البحر ليعبر من طريقه إلى سدة أحلامه راكلًا بطموحه طاسة زيت (الفلافل) لأنه حلم لنفسه حياة أفضل؛ فسعى بملكته الطموحة أن ينال تلك الحياة، ويكتب لذاته قصة تخلد ذكراه كخاله الذى طرق أبواب أوربا ونعم بخيراتها، ومحمد ابن الشيخ (هلال).

فى ركن من مؤخرة المركب كان يسبح بمسبحته التى ورثها عن الشيخ هدية من أرملته (أم محمد) بعد أن أوصته بالمحافظة عليها، يحاول بتسبيحه التخفيف من وطأة الفزع على قلبه.

شعر بوقت الفجر فأوصاهم بالدعاء جهرًا؛ علّ الله يفرج كربهم، هذا ما كان من السوداني.

بنبرة متحشرجة ألجمها البكاء المتقطع لم يستطع مقاومة الجزع، تأسف صبره عن تحمل أعاصير الفازعة القارعة، ركن إلى الدعاء بتلك الدموع وردد الجميع بحناجر صارخة، يأملون أن يُسمعوا من فى السماء، أو من فى البحر، فتأتيهم النجاة من قِبل يحتسبونها ولا يحتسبونها، ظلوا يدعون ويتضرعون حتى عسعس

الليل وتنفس الصبح، وضحك لهم البحر بوجه مداه الشاسع، والمركب مازال يركن على شاطىء العُطل.

والصبح يطلع علينا زى الليل ما مر

والخوف ماسك إيدينا بيشد منا البر!

غرّد بهذه الثرثرة المرتجلة شاعر المركب محمود وهو يتأمل بعين الحسرة مدى البحر الشاسع وفضاءه الواسع.

لم يثنهما ما هم فيه عن افتراش مائدتهما المعهودة بينهما، الوافرة بقطعتى الجُبن البلدى القديم وكسرتى الخبز الريفى اليابس، وحبات الطماطم، ينظر لهما خالد بعين التعجب والدهشة على ما هما فيه من لامبالاة ويسألهما عما نزل عليهم من وحى الهدوء؛ فيردا بعدما نظرا إليه بطرف أعينهما، وبصوت واحد:

– ماخدناش منها غير اللقمة!! اللى أهلنا تركوها لنا، ناكلها ولا نسيبها للبحر ياكلها؟

بردهما هذا قلّبوا جمر القلق فى قلوب رفقاء الهجرة المؤودة؛ فازداد الخوف أكثر فأكثر فى نفوس الكثير، تراءت لمخيلة المهاجرين مشاهد الغرق، ورغم أنهم فى ورطة الغرق إلا أن رد هؤلاء جعلهم يرونه كأنهم قادمون عليه لا محالة.

– بإذن الله يا جماعة، ربنا يفرجها ويبعت لنا مركب، ربنا كبير (قالها خالد: مدعيًا السكينة والاطمئنان حتى يهدّئ مَن غارت عليه جيوش الرجفة والفزع، ثم نظر لمن كان يقود المركب وهو مازال قابضا على كاويلة الدفة،

قال له: وأنت ياعم الربان ماتحاول تمشى تيتانيك دي.

بعنجهية ابن الأحياء العشوائية: ودين أمه لما أرجع لعرقبه بالمطوة ابن المفتوكة، أخد فلوسنا وركبنا مركبة هلكان ابن الشـ...

السودانى: وحد الله يا مصري، وانوى خير عشان ربُنا يسترها معنا .

نظر إليه نبيل وكأنه يقول من هذا؟

توسط قرص الشمس السماء ومازال المركب وسط البحر كشعرة بيضاء وحيدة تنتصف شعر رأس شابٍ يافع، فهل لها أن يراها أحد؟

– كلا !

مرت خمسة أيام بلياليها المظلمة على هذه الحال والمركب يركن لشاطيء العطلً وسط البحر الواسع حتى زاد المهاجرون من فتات طعام وبقايا شراب، فعوّض عن مائهم الذى نفد ماءُ السماء، الذى بلل أجسادهم المتيبسة من البرد القارص، وفى عصر اليوم الخامس يعزف فصل الشتاء سيمفونيته الهاطلة من أبواق السماء؛ ليكون عوضًا عن مائهم الذى نفد، وتحضر أولى رسل الردى فتصيب طفلاً رضيعًا بالحمى، الحمى التى لم تبقه فى حضن أسرته حتى ضحى اليوم التالي، بعدما عجز أمهر المهاجرين على ظهر المركب عن إسعافه؛ لشدة ما أصابه بسبب البرد والجوع، ليرحل الرضيع قبل أن يصل لبر الحياة الكريمة، ويموت وتموت بموته براءة وطنٍ عق أبناءه قبل أن يبروه! !

أُغشى على أمه التى لم تتحمل فجيعته؛ فيذبل الأب ويصيب قواه الخور بعدما كفن رضيعه بحجره البالى وهو يحاول رد أمه إلى واقع الكارثة، والوعى الفازع.

قرعَ ألم الفجيعة رأس الرجل فصاح يصرخ بحنجرة أصدأها النواح:

ماعملناش حاجة غير إننا قولنا نغير من عيشتنا الهباب، الفقر مش عيب!! العيب كلام الناس، العيب العوزة والاحتياج.

وبنبرة شكوى الموجوع أشجى السامعين بسرد قصة حياته، إنه طعِم هو وزوجته الملح وربطا على بطونهما! وأنهما ما سلكا هذا الطريق إلا ليواريا سوءة الفاقة والفقر التى كانت معيبة الناس لهما؛ فباعا كل ما يملكان ليرحلا لحال أفضل عبر طريق البحر والهجرة.

هدأت حرارة الشكوى وبدت نبرته كعزف ينساب على الانتهاء ثم مال بنظره على خد زوجته وكان يمسح على وجنتيها الذابلتين بكفه وقال لها فى خفوت وقطرات دمعه تتساقط على وجهها:

– مش قلت لك نرجع من هناك!!

لم ترد الزوجة لأنها ذهبت فى نوبة إغماء ولم ترجع.

جثتانِ هامدتانِ رضيع وأمه لم يستطع أمهر المهاجرين– على ظهر المركب– فعل شئ لهما سوى لفهما فى ألبسة تطوع بعض المهاجرين بها، فرجاء تبرعت بشالها الذى لُف به جسد الرضيع لتنزع لأول مرة جحابها وتكشف شعرها المستور، لكن الحال فوق كل الاعتبارات هكذا رضحت رجاء.

الجثتان تسربت إليهما أولى مراحل التحلل بعدما مرت أيام على رحيلهما ليهذى الرجل بعدها ويلحق بركبهما إلى الحياة الأفضل الحياة البرزخية. أسرة ودعت الحياة على ظهر المركب لتزداد أهوال قارعة الهلاك، شباب ورجال نحتوا صخور الجبال ليقتاتوا رزقهم، بدوا بعد اليوم السابع لعطل المركب كالسكارى، وأصابهم العى والوصب.

لاطعام ولاشراب لا أمان ولا اطمئنان ..لا نوم ولاراحة

ومن يسن أو ينعس يفيق على كابوس الغرق. خارت القوى ونحلت الأبدان.

سلموا أنفسهم لمجهول الأقدار، النجاة الميؤوسة أو الموت والغرق الساعى إليهم. وفجأة صرخ أحدهم:

مركب هناك.. مركب هناك؛ لينتفض الجميع من خوره كانتفاضة الكتيبة على العدو المستسلم، صارخين بأعلى أصواتهم المتشنجة بالتعب، ملوحين بأذرعتهم الهامدة تجاه هذا الشئ الذى بدا من بعيد أنه مركب، لا شئ فى البحر سوى المركب، لكن ياترى أمركب هجرة؟ أم مركب صيد؟

ينادون ويصرخون تجاه المركب لكن الشيء تلاشى عن عيونهم فخروا يائسين بعدما داعبهم الأمل بسراب مركب، جن الظلام فى ليلة مقمرة فتراءى للمهاجرين المركب ثانيةً فعاودوا الصراخ الميؤوس خالد ينزع عن نفسه قميصه ويشعل به النار ويشيح به للمركب ويصرخ ويشيح ويصرخ حتى التهمت النار يده بعدما أكلت قميصه، ومثله كان يفعل نبيل الذى اقشعر بدنه النحيل

من قرص البرد، لم يهدأ خالد عن الصرا خ والهتاف بالاستنجاد يهتف كما كان يهتف فى المسيرات حتى بُح صوته فبات محروق اليد.. مبحوح الصوت..

(ومن عاش على شئ غرق عليه)

* * *

يرتجف قلب أم رجاء هناك فى حى المعصرة، يسقط – وب اللبن من يدها قبل أن تناوله إياه، ينسكب الحليب على سجادة الصالة الرمادية، وضعت – فها على صدرها من فزعة السقوط، شهقت وحملقت، ثم أغمضت وتسارعت النبضات فى صدرها، ينتفض أبو رجاء من مقعده:

– الحمد لله الحمد لله، بسيطة، خير.

يسيطر الصمت بعد الحمد لثوانٍ, كأنه هو الرد الأبلغ عن سقوط الكوب الشؤم.

كلاهما تزداد نبضات قلبه ويتحمس الخفقان، حالة من التوتر جلاها سقوط الكوب.

تتنهد أم رجاء، مازال الخفقان يصفع صدرها، والصمت يلجم لسانها من إثر حادثة الكوب المسكوب.

هل أخرست؟

هل غُيبت ..؟

ليس الآن، فهى لم تنعَ فى ابنتها بعد !

يسيطر أبو رجاء على الموقف ويمسك بزمام أعصابه، يرخي يده إليها يساعدها على الجلوس على الأريكة، يقعدها ثم يتجه إلى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ينقل خطاه تجآه المطبخ وهو يحدث نفسه ألا تسقط كوب المياه من يده، رغم أنه لا يتمالك أعصابه والرعشة داهمت وهاجمت أطرافه.

أناملـه تمسك بعروة الكوب الزجاجي، يهتز وتموج ذرات المياه بداخله.

* * *

يا له من حظ سيء..

بدأت الأمواج تعلن عن حضورها ليكتمل المشهد القارع بصورة أخرى من صور الفزع والهلع.

(وعندما تتسابق الأقدار إليك وتكونَ محض مصيرها..فأي الأقدار تسبق إليك ..؟فلتسأل ماذا قدمت؟)

تلاطم الأمواج شبح يودى بكل مركب هزيل لا يستطيع مقاومة لكماته أو تحمل صفعاته ! !

صراخ المهاجرين المبحوح مازال يشد – أملاً – المركب الذى لم يقترب سوى مسافة قليلة من مركبهم.

لتأتى بداية النهاية مع مداعبة الأمواج العاتية لمركبهم الهش الهزيل، والكل يصرخ ويصرخ.. استنجادا من الهلاك الواقع بعدما بدأ المركب فى الترنح والتراقص إثر تلاطم الأمواج به، وسادت حالة المرج على ظهر المركب.

وسط مرج المهاجرين والمركب تتنرنح وتداعب الغرق

تأوى لركن فى نهاية المركب وتحدج فى وجه السماء الذى بدا سخيفا.. وكأنها تخاطب القمر والدموع تجدول مقلتيها الذابلتين.

هى لا تريد ان ترحل عن الحياة وتسلم لها عهدتها الروحية هكذا، تتمنى لو أنّ الموت يرجئ مهمته حتى تعود إلى أبيها فتستغفره وتطلب منه أن يسامحها.

تنساب العبرات على مقلتيه وتخمر وجنتيها لتنبئ عن حالة الخوف والفزع التى تعيشها رجاءُ وتتضرع إلى ربها وتدعو : يا الله، سامحنى إن لم يسامحنى أبي، هذا ما نطق به حالها بعدما تشنجت أعصابها وفقدت السيطرة عليها.

صرخات الاستنجاد الميؤوسة التى تصخب بها أقرانها من المهاجرين معها إلى سدة الموت تداعب خوفها فتزداد العبرات أكثر فأكثر، وكأن عينيها تفيضان من نبع هذا البحر الذى ستؤول إليه قريباً فيحدد مصيرها.

«لا لا..»

هكذا هتفت، وكأنها تريد أن تسكت عن أذنيها هذا الصخب من الصراخ الميؤوس، وبعدما لم تجد من لم يسمعها رنت إلى السماء، فإذا البدر بكل سخافة ينظر إليها ببهجة وابتسامة قمرية!

رنت إليه بجفن يلمع ويبرق كرئم الطبية.

إن الدموع مسحت كحل العين فلمعت وبرقت

كأن عينيها تخاطبان البدر بهذه اللمعة، فيضاهى جمالها جماله، لكن جمال هذا البدر باقٍ وجمال هذى العين آل إلى الرحيل!!

يقترب ضوء المركب المأمول تجاه المهاجرين ليسابق قدر المركب المنكوب الذى يترنح مع تلاطم الأمواج، وفزع المهاجرين. بدت بداية النهاية كشبح أعور ممسوخة إحدى عينيه، يمسح لعابه الدمائى بأظافره ومخالبه التى تنهش فى وجوه المهاجرين

وصدورهم، شبح يضحك فى صوت البحر ويتراقص فى أمواجه.

يميل المركب فيهرعون للناحية الأخرى، ويسقط بعضهم فى المياه فيحدث تلاطمه بالمياه ارتجاجا وزلزلة فى مهج الباقين، ومنهم من يلقى بنفسه ليخفف من حمولته وينادى من يستطيع السباحة بالقفز؛ ليسيطر خالد ومن معه فى تثبيت المركب، لكن أين تكون السيطرة فى زحام الموت؟

سمع المهاجرون- إلى الحياة الكريمة أمس ,المهاجرون إلى قاع المتوسط اليوم – صوت تفتك خشب جانب المركب الأيمن وكأنهم ينصتون لهذا الصوت من بين أصوات الصخب والصراخ، وصوت البحر، ترامى لهم الصوت بوضوح لبعضهم ورأى الشبح يزعق فى وجه برجرجة مزلزلة ليعلن بوقوع النهاية.. **وتنتهى بداية النهاية!**

الشبح يفغر فاه ويطلب من البحر أن يلقنه – بين أنيابه – جسد المركب محشوًا ببعض المهاجرين لقمةً سائغة لقاع المتوسط.

وتحل نهاية النهاية !

انقلب المركب..

قبل أن تقترب المركب المأمول التى أتت من بعيد نحوهم!!. تناثر المهاجرون فى المتوسط ومركبهم يسلك طريقه لقاع المحيط فى مشهد ختامى قارع حاملاً معه جثث أسرة بادرت بالموت إلى الحياة الكريمة، ومن لم يستطع السباحة رحل فى صحبة المركب إلى جوف المتوسط فى رحلة أبدية **عودتها يوم البعث الأكبر!**

خالد بصوته المبتور يقاوم المياه وهو يحمل صديقه الذى رمق أنفاسه الأخيرة فى غفلة من خالد، ظل يسبح من استطاع السباحة حتى طلّت – من قريب – البارجة التى شرعت بعَلم أخضر.

أتت البارجة فى وقت لم يسعف الكثير .. فانتشلت ما بقى على قيد الحياة .. مابقي شاهدًا على المأساة ..وكان خالد يستعير من رئتيه آخر أنفاسها قبل أن يسجى هامدًا على متن إحدى مراكب الصيد وهو يرتجف وترتعد فرائصه، ليغشى عليه ويذهب عن الوعى.

بعد بضعة أيام من ابتلاع قاع المتوسط لمركب المهاجرين، إتشح ميناء الإسكندرية البحرى بالأحزان، بعدما توافدت أهالى ضحايا الهجرة المؤودة من كل مصر، من مشارقها ومغاربها.. شمالها وجنوبها.. ريفها وصعيدها..

هرعوا يجرون أذيال الندامة والحسرة!! بعدما ترددت الأنباء عن نجاة القليل من المركب المنكوبة، ليفقد الكثير أملَ رجوع من يخصه حيًا، لكنهم ينتظرون أن يرد لهم البحرُ أبناءهم وذويهم، حتى لو كانوا جثثا؛ يكفنونهم ويدفنونهم، ويقيمون لهم المآتم؛ فهم لايرضون البحر أن يكون قبرًا لأبنائهم.

لم يغب رجال الأمن – من الجيش والشرطة – عن زحام المشهد؛ فهم ينتظرون من يفلت بروحه – حيًا – من الغرق، أو ينجو بجثته – ميتًا – من أضراس الحيتان، ينتفضون عليه لإجراء التحقيقات الأمنية.

«ولابد للقانون أن يأخذ مجراه، ما فعله هؤلاء المذنبون جريمة فى حق الوطن يعاقب عليها القانون المصرى».

كان هذا تصريح أحد الأبواق الإعلامية التى أيقنت أن ضمير المهنة فى جذب الإعلانات.

وقع خطواته على البلاط عزف لحنًا ميريًّا كشف عن هُويته الأمنية التى وراها – بلا قصد – فى جاكت جلد أسود وبنطالون جينز أزرق فوقه قميص بنى اللون. يسير وخلفه عسكرى يرتدى بزة سوداء، حاملاً سلاحه على كتفه، وآخر، محضر يتأبطه سجل المحاضر. نفخ فى وجهها دخان سيجارته بعدما قالت له: السيجارة يا باشا، وأشارت بإطفائها، حسناء تعيّى قلوب المرضى بتلك العينين الساحرتين .

دهس سيجارته على البلاط المشقق قبل أن يجلس على طرف السرير الذى يرقد عليه خالد، وسأله، أشار له أن يعطيه ورقة وقلم وكتب:

فى هذه الرحلة، رحلة البحث عن الحياة الكريمة على شطآن جنان العالم المتقدم لا نأمل سوى الموت أو الهلاك رفيقا لرحلتنا، ورغم ذلك لا نتراجع ونهدهد مخاوفنا بآمال خادعة مزيفة؛ لأننا ارتضينا أن لو مِتنا مرة واحدة بإرادتنا خير لنا من أن نموت كل يوم بين أحضان وطننا التاعس. **فالفقرُ موت، والعوز موت، والضعفُ موت، والذلُ موت، والاضطهادُ موت، والاستخفافُ بعقولنا موت، وتضليلُنا موت، وإسكاتُنا موت، وتبديدُ أموالنا موت، وكبتُ حريتنا موت**، وما هذا الوطن إلا رهن موت!!

كان هذا بوح خالد بخط قلمه الذى أناب عن صوته المبحوح مع إجراء التحقيقات الأمنية معه وهو طريح سرير مستشفى المبرة بالإسكندرية.

لماذا خضت هذا التجربة يا خالد؟

تمت بفضل الله

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع